

محمد الراوي



محمود امين النواوى
مفتش اللغة العربية بالأزهر

جولات اسـلامية

[الطبعة الأولى]

مطبعة حجازى

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، عليه نتوكل وبه نستعين ، ومنه نستمد السداد والتوفيق .

وبعد : فهذه العظات البالغة ، والدراسات الاسلامية الجامعة ، والآراء الحصيفة الدقيقة ، أثر علمى ودينى جليل ، لأستاذ من كبار أساتذة الأزهر ، وشيخ من أعلام شيوخه المعاصرين ، هو أستاذنا العلامة الشيخ محمود النواوى أمده الله بالهدى والصواب والخير ، وارشدنا وإياه سواء السبيل .

وقلما اجتمعت حصافة الرأى ، ودقة الفهم ، وروعة الأسلوب ، فى دراسة ، كما اجتمعت فى هذا الكتاب الرائع الجليل وأستاذنا العلامة النواوى يتابع جهوده الاسلامية والعلمية منذ ربع قرن من الزمان : أستاذا فى الازهر الشريف ، وأستاذا فى كلية أصول الدين ، ومفتشا عاما بالأزهر الشريف .

وله كتب جليلة ، هذا الكتاب أحدها . وكان من حظى الطيب ، وسعادتى الشاملة ، أن أقدم هذا الكتاب إلى القراء فى كل مكان ، وإلى المسلمين فى كل قطر

وما توفيقا إلا بالله ، عليه نتوكل وإليه ننيب .

محمد عبد المنعم خفاجى

المدرس فى كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم بها هذا الكتاب (جولات إسلامية) الذى أحسبه جهداً متواضعاً أرجو منه أن يجد فيه قارىء منفعة يفيدها أو يجد فيه آخر متعة يريدها .

وهذا الكتاب فى بعضه تعريف بالإسلام وأصوله وشرائعه فى الدين والاجتماع والعقائد وفى بعضه الآخر تفصيل لمآثر أعلام الإسلام الخالدين السالفين ممن لم يتحدث عنهم الباحثون والدارسون حديثاً يشفى العلة . وفى بعضه الأخير تفصيل لمواقف أدباء وشعراء إسلاميين لهم بالإسلام فضل وبأدب القرآن بلاغة وروعة تأثير ، ولكل أثره وغايته عند القارىء الكريم .

على أنى أرجو من القارىء أن يتخذ من حسن نيتى شفيعاً لما عسى أن يكون من زلل ، ليس يخلو منه بشر ، وأقول كما قال العبد الصالح والنبى الكريم ، شعيب عليه السلام (إن أريد إلا الإصـــلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المؤلف

محمود النواوى

نظرة الاسلام إلى الجهاد

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتى ماقعدت خلف سرية . ولو وددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل

أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود واللفظ من البخارى .

هذا الحديث الجليل فى موضوع الجهاد فى سبيل الله، وبيان منزلته الخطيرة فى الإسلام، وما يستتبعه من كفالة الجنة لمن قتل، مصداقا لقول الله عز اسمه .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ، أما من لم يقتل فإن له أجر الجهاد العظيم . وثواب الدفاع عن حوزة الدين ، مع الجائزة الدينوية من الغنيمة الهنيئة الطيبة إن غنم المجاهدون ، فالمجاهد فائز فى كل أمره وعلى كل وجه يتصل به ، مبشر من الله ورسوله كما تقرر ذلك الآية الكريمة « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » وهكذا يحث النبى صلى الله عليه وسلم على الجهاد ويبين أنه كان حريصا على أن يخرج مع أصحابه فى كل جماعة تجاهد لولا خشيته أن يشق على المسلمين وأنه كان يود لو يغزو فيقتل ثم يبعث ثم يغزو فيقتل ثم يبعث أيضا ثم يغزو فيقتل وذلك لما يعلم من فضل الجهاد وما يحمله من سعادة فى الدارين .

شرح الحديث

انتدب فى الأصل بمعنى أجاب ومن شأن الإجابة أن تكون أثراً لطب ودعاء وليس هنا طلب حقيقى ولا دعاء ، فلهذا التعبير نكتة لطيفة وهى أن الجهاد فى سبيل الله بمثابة الطلب من الله سبحانه ، والمطمع فى ساحة إحسانه وأن المجاهد طالب بلسان حاله يتولاه الله سبحانه بخير ما يتولى به عباده المؤمنين وهو إشارة عظيمة إلى أن الجهاد لا يكون إلا فى نفوس كريمة قد صفت من الرعونات واتجهت بصادق النية إلى بارىء السموات، إننا يارب قد أسلمنا وجوهنا لك وضحينا بنفوسنا نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك فأجرنا عليك وعوننا منك، ولهذا يقول الله سبحانه «فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » وقد أورد صاحب القاموس عبارة الحديث الشريف وشرحها فقال ، وانتدب الله لمن خرج فى سبيله أجابه إلى غفرانه أوضمن وتكفل أو سارع بثوابه وحسن جزائه أو أوجب تفضلا أى حقق وأحكم أن ينجز له ذلك .

والتفسير الأول فى كلامه تفسير بالمعنى الحقيقى وأما ما بعده فهو محاولة للوصول إلى مراد الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر ما يلزم الإجابة ويتصل بها اتصالا قويا كما هو شأن المعانى المجازية فإن كل هذه المعانى من الضمان والتكفل والمسارعة والإيجاب والتحقيق يتصل بالإجابة التى تفهمها كلمة انتدب فى أصل وضعها

وقد جاء الحديث فى روايتين لمسلم على المعنى المقصود بلفظه الحقيقى . ففى رواية له تضمن الله وفى أخرى تكفل الله ، وقوله لمن خرج فى سبيله . متعلق بانتدب لما فيه من معنى الضمان والكفالة . وفى سبيله متعلق بخرج . وكلمة فى تفيد التعليل كما يسلك العرب فى تعبيرهم بها أحيانا وهى فى حديث « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها » كذلك ، وهى مستعملة فى هذا المعنى نفسه فى الكتاب والسنة .

قال الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله . وتجاهدون فى سبيل الله » وأمثاله كثير وفسرها النبي صلى الله عليه وسلم للسائل فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا . فهو فى سبيل الله . وإذا فمعنى لمن خرج فى « لمن خرج» لإعلاء كلمته ونصرة دينه وإظهار هدايته وإتمام نوره ، ولو كره الكافرون .

وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين أن هذا الجهاد الذى يستحق صاحبه كل ذلك الأجر المبين فى الحديث الكريم مشروط بإخلاص النية لله سبحانه فقال (لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى) ولعلك ترى أن ذلك إطناب فى القول لزيادة العناية وقوة التوجيه ، فإن الأمور العظيمة لا يكتفى فيها بملزوم عن لازم ولا بمعقول عن ملفوظ ، وإلا فان المجاهد لتكون كلمة الله هى العليا ، لا يكون كذلك إلا إذا كان خالص النية لله وكان خروجه إيمانا بالله سبحانه وتصديقا برسله وفى الحق إن كل شعائر الإسلام لا يقبل الله سبحانه منها إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه . وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك . « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الله الدين »

وإنك لواجد أيها القارىء الكريم إطنابا أيضا فى قوله «وتصديق برسلى» فإن الإيمان الصحيح بالله لا يكون إلا عند مصدق برسله ولذلك قالوا إنه عطف لازم على ملزوم والسر فى هذا الإطناب أيضا التوجيه إلى ناحية القدوة الصحيحة فى ذروة سنام الإسلام الجهاد ، فإن الأنبياء بعثوا بالهداية والدعوة الصالحة ولابد للدعوة من حماية وحصانة والجهاد دعامة الحماية والسلاح ردع لكل جبار

ويقولون إن فى الحديث التفاتا ونحن نرى الالتفات من مسالك العرب فى الفصيح من كلامها ، وأنه يجرى كثيرا فى الكتاب الكريم كقوله « إياك نعبد» بعد قوله « لحمد الله » . فهو التفات من الغيبة إلى الخطاب وكقوله حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم . وهو التفات من الخطاب إلى الغيبة . وهو تلوين جميل

وسر من أسرار اللغة القوية ، ولكننى أفهم فى الحديث أن الجملة الثانية وهى لا يخرجه إلا إيمان بى ، وتصديق برسلى محكية عن الله سبحانه وأرى فيها تقدير القول كأنه يقول انتدب الله عز وجل . قائلا لا يخرجه إلا إيمان بى والكلام على هذا جار على الظاهر المترقب ، وأما الأول فهو من كلام النبى صلى الله عليه وسلم إخبارا عن ما صنع الله سبحانه للمجاهد ، فالمتكلم مختلف والكلام فى وضعه الذى لا ينتظر السامع غيره فلاالتفات فى الحديث ، وعلى ذلك تكون جملة لا يخرجه الخ حال من فاعل انتدب على فقدير هذا المحذوف ، ذلك ماظهر لى والله العلم .

وأما قوله (أن أرجعه بما نال الخ) فإن أرجع بمعنى أرد مفتوح الهمزة أو مضمومها رجعه وأرجعه وفى القرآن الكريم ، فإن رجعك الله إلى طائفة ، وهو مؤول بمصدر مجرور بالباء كأنه قال تكفل الله عز وجل للمجاهد أن يرجعه بما نال ثم إنه بين الذى نال بقوله من أجر أو غنيمة .

وأما قوله أو أدخله الجنة فهذا بيان للقسم الثانى الذى لم يعد إلى وطنه ، والمجاهدون قسمان راجع إلى أهله ناج من القتل وجزاؤه الأجر أو الغنم ، وقتيل ميت بأجله وجزاؤه الجنة قد باعها الله سبحانه له ، وتكفل بالإحسان بها إليه كما فى قوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

ثم بين النبى صلى الله عليه وسلم شدة حرصه على هذه الفريضة العظمية ووجه العذر له فى تخلفه عن بعض السرايا بأنه يخاف المشقة على الأمة الكريمة ، لأن خروجه يؤكد خروج المستطيع ، فإنه لا يقعد خلاف رسول الله بغير عذر إلا منافق .

وقد يحرص من لا استعداد له فيقع فى الحرج ، فقال صلى الله عليه وسلم : (ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية [1]) ، وقد بين فى حديث آخر

(١) السرية : القطعة من الجيش من خمسة أنفس إلى أربعمائة .

رواه مسلم جهة المشقة فقال (لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى) . فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتخلف عن سرية واحدة إلا رحمة بالأمة ، وتخفيفاً عليها ، ولولا ذلك لم تفته واحدة إذا كان ذلك الجهاد فى منزلة لا تتسامى إليها منزلة بعد الصلاة والصوم والزكاة والحج بل إن الجهاد يرخص فى هذه الأركان بنقص أو تأجيل أو إعفاء إذا اقتضى ذلك الأمر ، كما فصل فى كتب الفقه . وقد زاد النبى صلى الله عليه وسلم أمر الجها تأكيداً وترغيباً فقال (ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أحيا ثم أقتل) : وهذه هى الجملة الثالثة من جمل الحديث الشريف :

وأما إيثار (ثم) فى العطف فإنه من باب التراخى فى الرتبة وليس للتراخى فى الزمان بدليل رواية مسلم المذكورة فهى بالفاء وتكرار القتل ثلاث مرات جرى على العادة فى التكرار والتأكيد لبيان شدة الحرص وليس للتحديد .

بقى مما يخطر بالذهن من مباحث الحديث الشريف أن دخول الجنة مكفول لكل مؤمن فما مزية الشهيد ؟ وللجواب على هذا نقول : إن هذا ضمان من الله سبحانه للمجاهد أن يموت على إيمانه وطهره وأن خاتمته خير وأنه ليس ممن يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار .

ويقول النووى فى شرح مسلم نقلا عن القاضى ان المجاهد يدخل الجنة عند موته كما قال تعالى فى الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ويحتمل أن المراد دخوله الجنة عند دخول للسابقين والمقربين بلا حساب . وتكون الشهادة مكفرة للذنوب كما فى الحديث الصحيح . اه وهذا كلام مقبول وهو مؤيد بالآية الكريمة التى جعلت الشهيد فى صحبة النبيين والصديقين « ومن يطع الله والرسول فأولئك

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقا » .

وأما ما يستفاد من الحديث فكثير وعلى رأسه فضل الشهادة والغزو فى سبيل الله . وأن الجهاد لا بد أن يكون لاعلاء الحق والنضال دونه ، وكذلك رفق النبي صلى الله عليه وسلم بأمته ، وإيثاره الرفق بهم على ما يجب من الخير . وكذلك تقديم بعض المصالح على بعض عند التعارض . وكذلك القسم عند العناية والتأكيد ، وفيه جواز تمنى الخير ولو كان غير ممكن فى العادة كالأحياء بعد الموت وفيه أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين . قال الفقهاء إن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين . قال الفقهاء إن الجهاد فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين إلا إذا هجم العدو فإنه يكون فرض عين فتخرج المرأة بدون إذن زوجها والعبد بدون إذن سيده . وبعد فإن نواحى الترغيب فى الجهاد والترهيب من إهماله تحتل فراغا كبيرا جدا من الكتاب الكريم والسنة النبوية ولا غرو فهو ذروة سنام الإسلام وحامى حمى المجد وحارس الشرع الكريم ، وما يحمله من سلام ووئام ومودة بين الناس ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين »

من توجيهات الاسلام

ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد »

بنفسى وأهلى أولئك الذين تجردوا من أنفسهم ولذاتهم ، ومن أموالهم وأبنائهم ، فباعوا كل ذلك لله ، وبذلوه فى سبيل الله ، إنهم لجديرون بأن نطأطىء لها الرءوس إذا ذكروا ، وأن تلين لعظمة نفوسهم الجلود والقلوب « أولئك الذين هداهم الله . وأولئك هم اولو الألباب »

قد عرف الاسلام كثيراً من هؤلاء المجاهدين الصابرين وعلى رأسهم سيد الأمة وأستاذها « سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » الذى كانت فيه الأسوة الصالحة الكريمة لكل من يجاهد فى سبيل الله ؛ ويشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، لقد كان يؤذى فى ذات مولاه . ومن أخلص أهليته وذوى قرباه ، فى غدوه ورواحه ، وفى مسائه وصباحه .

ولقد تضافرت عليه قريش ، وتألبت عليه العرب « فما وهن لما أصابه فى سبيل الله وما ضعف وما استكان ، ولا زاد على أن قال كلمته الخالدة المدوية فى فى فضاء هذا الوجود ، الناصعة المشرقة فى صفحات البشرية والخدود : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن ترك هذا الأمر ، حتى ظهره الله أو أهلك دونه ، ماتركته » .

ولقد كان لأستاذيته العظيمة فى العزة الإسلامية والكرامة الأدبية ، والتمسك بالحق أثرها الخالد العظيم فى نفوس أصحابه وأتباعه ، منذ قام الصراع بدعوته الكريمة بين الحق والباطل ، ومنذ شمرت قريش عن ساعدها تتفنن فى أذى من عرف السبيل إلى الدين الحق ، ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين . يعذبونه بشتى الألوان وصنوف الهوان . فهذا يلقى عبده الحبشى « بلالا » على الرمل فى الهجير تحت الشمس المحرقة ، ويضع على صدره الحجر ويسلمه للموت وهو يقول « أحد أحد » ، ثم يمر به ورقة بن نوفل فيرثى لحاله ، ويبكى له ويقول : والله لئن قتلته قريش

لأتخذته حنانا ، ثم يشتريه أبو بكر فيعتقه كما أعتق كثيرا من الموالى قبله وبعده ، منهم جارية لعمر بن الخطاب قبل إسلامه ، وهذه امرأة أخرى عذبت أشد العذاب حتى ماتت ، لاتنصرف عن دينها الحق ، ولا تتحول عن مبدئها الصدق ، وهذا وهذا ، ومن إليهم من المعذبين فى ذات الله وفى سبيل مرضاته ، وابتغاء وجهه الكريم .

وعزز الإسلام موافقهم . ووجه الناس جميعا وجهتهم إذا يقول : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلو من قبلكم : مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إن نصر الله قريب بنفسى وأهلى أولئك الذين اشترى الله سبحانه أنفسهم وأموالهم » بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

كل تضحية يضحى بها المؤمن فى سبيل الله فهى سعادة له ، وإعتاق لنفسه ، وبرهان على أن الايمان الصحيح خالطا قلبه . وكذلك الإسلام حين تخالط بشاشته القلوب

التمسك بالحق ، والبقاء على المبدأ والكلمة الصادقة العادلة عند السلطان الجائر وعدم الرضا بالضيم ، ولا المبالاة بما يصيب المؤمن فى الثبات على مبدئه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر على ما يصيب فى سبيله وما يقع من تضحيات لاجله ؛ كل ذلك شراء للنفس ابتغاء مرضاة الله « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله . ولا يطأون موطئا يغيظ به الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين »

ليت شعرى متى نرى فى أمتنا هذه ، أولئك الذين صدقوا ماعهدوا الله عليه

هم الذين تعمر بهم الأرض ويستقر السلام والأمن وترضى السماء ، وتتم السعادة والرخاء .

أما أولئك المنافقون ، الذين يلقون هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، ويتجملون لكل من يلقون ، فيعاملون الجائر المقيم على جوره معاملة المعاونة والصفاء ، ويقابلون التقى المغرق فى نسكه مقابلة المجاملة والرياء ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق وهم يعلمون ، فانهم شر وبلاء على هذه الأمة أكثر من أعدائها ، وهم الشؤم على الحياة والمجتمع ، وهم الذين يفلون شوكة الجماعة ، ويغلون أيدى أهل الحق والطاعة ، غثاء كغثاء السيل ، ما يبالى الله فى أى واد هلكوا ، ولا من أى أبواب الجحيم ولجوا

إن شراء النفس ابتغاء مرضاة الله فريضة محكمة ، وسنة قائمة ، وعزيمة صادقة ، يجليها الجهاد الصادق لإعلاء كلمة الحق ، وإصلاح المجتمع الذى يعيش فيه المرء ، ولن يكون ذلك إلا بعد أن يجاهد المؤمن نفسه أولا ، ليحصن إيمانه وليحفظ قلبه ولسانه ، وليستعمل جوارحه فى الخير وللخير ، فيجعلها كلها لله وبالله ، لا يضن بصالحة ، ولا يدخر وسعا فى منفعة ، ولن يكون ذلك أيضا إلا بعد جهاد الشيطان والانتصار عليه ، حتى يسلم المجاهد من عبثه به ، فيعصى أمره ، ويكذب وعده ، فأنه متربص ببنى آدم « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » .

وإن فى مجاهدة الشيطان لأكبر قوة للنفس ، ومناعة للقلب من الأمراض الفتاكة التى تعميه عن إبصار الحق ، وتفتره عن توجيه الجوارح فى الخير . .

« ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » .

وإذا تم جهاد النفس والشيطان « وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » فقد سهل جهاد الكفار والمنافقين وأهل الزيغ والمارقين ، واستطاع المؤمن أن يعيش كريما عظيما ، ويدعى بذلك فى ملكوت السماء . .

ولقد ذكر الإمام العالم الصوفى ابن قيم الجوزية فى كتاب « زاد المعاد ، أن جهاد النفس على أربع مراتب :

١ — جهادها على تعلم الهدى ، ودين الحق الذى لا فلاح بدونه ولا سعادة إلا به .

٢ — جهادها على العمل به ، فان العلم وحده إن لم يضرها لم ينفعها .

٣ — جهادها على الدعوة إليه وتعليمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى .

٤ — جهادها لتصبر على مشاق الدعوى إلى الله ، وأذى الخلق فى سبيلها .

فمن استكمل هذه المراتب فهو من الربانيين .

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان .

الأولى : دفع مايلقى إليه من الشبهات والشكوك فى الإيمان ، وذلك يثمر اليقين .

الثانية : دفع ما يلقى من الإرادة والشهوات ، وذلك يثمر الصبر .

واليقين والصبر هما اللذان رفع الله بهما من رفع من عباده ، كما يشير إليه قوله : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون » .

فمن استطاع أن يقوم نفسه ، وأن ينزع شيطانه فقد اعتز بالله ، وارتفع عن كل من سواه ، يقول الحق ولو على والديه والأقربين ، ولا يكتم الشهادة ، وينصر أولياء الله مهما تخل عنهم سواه ، ويخذل أولياء الشيطان مهما تنافس الناس فى القرب منهم ، الضعيف قوى عنده حتى يأخذ له حقه ، والقوى ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه . يتعهد جاره وعشيره وصديقه باخلاص وطيب نفس ، ويجد

فى مصالح المحتاجين . واغاثة الملهوفين . نفسه منه فى عناء ، والناس جميعا منه فى راحة .

ويعجبنى من كلام أمير المؤمنين على عليه السلام فى كلمة لأخيه عقيل : « وأما ما سألت عنه من رأيى فى القتال فان رأيى قتال المحلين حتى ألقى الله ، لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة . ولا تفرقهم عنى وحشة ، ولا تحسبن ابن أبيك ، ولو أسلمه الناس ، متضرعا متخشعا ، ولا مقراً للضيم واهنا ، ولا سلس الزمام للقائد ، ولا وطىء الظهر للراكب ، ولكن كما قال أخو سليم .

فإن تسأليني كيف أنت فأننى صبور على ريب الزمان صليب
يعز على أن ترى بى كآبة فيشمت عاد أو يساء حبيب

العلم والعمل

أما أن العلم فى ذاته لا يستتبع العمل فذلك أمر مشهود جاء فى الشاهد والغائب وهو مما استفاضت به الأخبار ، وطفحت به الآداب والاشعار ، وهو شىء لا يأباه العقل والمنطق السليم ، فان العلم إنما يرفع ضده وهو الجهل ، ولا يرفع ضلالا ولا طغيانا ولا مأثما ، فما أكثر مآثم العالمين ومفاسد الثرثارين والمتفيهقين ، وإنما كان الشأن فى العلم أن يتطلب العمل من قبل أن العاقل من حقه إذا علم النفع فى شىء حرص عليه ، وإذا رأى الضرر فى شىء فر منه تمشيا مع غريزة الحرص على جلب المنافع للنفس بقدر الطاقة البشرية ، فاذا حمق العالم أو أخطأه التوفيق خلط فى سيره وعرض نفسه لكل مافيه عليه مقال ، نسأل الله السلامة والعصمة .

وفى الحق أن العلم كالماء يتلون بلون الإناء ويتبع المتصف به ، والله سبحانه قسم بين الناس العلم كما قسم الرزق ، ولكن عباده يتفاوتون فى تقدير العلم والانتفاع به ، كما يتفاوتون فى تقدير المال ووضعه فى مواضعه ، ولذلك قرنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف الذى يرويه البخارى .

« لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس .

وفى الحديث البخارى أيضا ، يقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلمين أصنافا فقد شبه ما بعثه الله من الهدى والعلم بالغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب فأكل الناس وشربوا وملئوا أسقيتهم وكان منها أرض أمسكت الماء للوارد والمستقى .

وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فأهل العلم منهم النافع والمنتفع كالأرض الطيبة المنبتة ومنهم النافع غير المنتفع وهو الذى يعلم الخير ولا يعمل به ومنهم من لا ينفع ولا ينتفع كالقيعان .

ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم إنما أنا قاسم والله المعطى فاذا وصل العلم والمعرفة إلى نفس أفادت منها بقدر عنصرها واستعدادها واتجهت بها مع ظروفها وملابستها ولهذا يصرف كثير من الناس العلم عن اتجاهه ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ويؤولون آيات الكتاب بما يوافق أهواءهم يزعمون فى أنفسهم أنهم لا يريدون أن يقطعوا علاقتهم بالعلم ونسبتهم إليه وفى الحق لقد أوجد هؤلاء بينهم وبين العلم أكبر جفوة لأنهم فسروه على عكس اتجاهه والعلم لا يقبل ذلك لأنه نور فضاح يكشف كل من قرب منه وحام حول ضيائه وفى الحق أيضا أن كل علم لا يوجه وجهته ففيه شائبة الجهل على أى اعتبار وفى أى وضع . قال بعض السلف ماعصى الله إلا جاهل وقرأ الآية الكريمة (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) وفى حديث شريف لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا بل إن فى بعض الآثار ما يدل على أن بعض المعاصى يرفع الإيمان وقت التلبس به ففى الحديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن الخ » ولهذا أكثر الناس من سلب الوصف عمن أتصف به إذا لم يحقق ثمرته المقصودة ولذلك تبدى وجهان من التأويل .

أحدهما أن المراد نفى الانتفاع فكأن هذا الشىء الموجود فى ذاته مفقود لأنه لم يحقق الغايه .

(الثانى) أنه ناقص من بعض نواحيه لأنه لم يحقق الغاية ولو كان كاملا لحقق الغاية ولذلك تقسم المعارف فى بعض الاصطلاحات إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ولهذا كان العلم مقولا بالتشكيك عند التحقيق .

ومهما يكن من شىء فان العلم فى ذاته لا يستلزم العمل ولا يقتضيه ولهذا أيضا تفاوتت أقدار العلماء فعالم فى السماك وهو الذى يشبه أنبياء بنى اسرائيل يعلم الحكمة ويعلمها ويكون كالأرض الطيبة التى تنبت الطيب وتفيد الطيب النافع المصلح .

وعالم آخر فى الحضيض تلعنه الملائكة والانس والجن ممن قال فيهم الرسول

صلوات الله وسلامه عليه « يؤتى بالعالم يوم القيامة فتندلق أقتابه فى جهنم فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به اهل النار فيقولون مالك وقد كنت تأمرنا بالخير وتنهانا عن الشر الحديث » وهؤلاء هم الذين يشترون الضلالة ولا يبالون ما فعلوا.

ولذلك فاننا ننبه اهل العلم ومن آتاهم الله الكتاب والحكمة وخصهم بمزية العلم الذى يرفع المملوك إلى مجالس الملوك ويجعل صاحبه فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلوه عليها ، هذا العالم الكريم ينبغى أن يحفظ عليه كرامته ، وأن يحصن دينه وسمعته ، وأن يعز نفسه باعزازه ، وأن يكرر النظر فى مثل كلام القاضى الجرجانى الذى يقول فيه :

يقولون لى فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ... إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالاطماع حتى تجهما

يريد الوضع الطبيعى من رجل العلم أن يكون أسوة حسنة ،وقدوة صالحة يستفيد الناس من عمله مثل ما يستفيدون من علمه، أو مايغنى عن الاستفادة بعلمه وفى الواقع إنه مسئول بما يصدر منه عن الناس كما أنه مسئول عن نفسه ولهذا قالوا « إذا زل العالم زل العالم» وصنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس الأمراء والعلماء » .

يريد الوضع السليم من رجل العلم ألا يحرم نفسه من ثمرة هذا النور الكريم ، والإشراق السماوى العظيم ، فما أشد خسارة من يرى الضياء ولا يبصر فيه وما أسوأ حرمان من حرم التوفيق لما هو أقرب شىء إليه ، ومن أضل ممن ضل على علم وختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره عشاوة .

يريد الوضع السليم من رجل العلم ألا يحرم الكياسة إلى حد أن يهمل عمل الخير

وقد تعلم ما يتنافس الناس فى نيله ليصلوا إلى ذلك الخير ، هـذا والله حماقة تنادى على صاحبها بالثبور والويل « ويل لمن لا يعلم مرة ، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل ألف مرة » فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هـــذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا .

إذا كان الناس يعظمون العلماء ويحسدونهم على ماهم فيه من الفضل العظيم وإذا كان الله سبحانه يرفع الذين أوتو العلم درجات ، فذلك لأنهم يستطيعون أن يفعلوا الخير ويكونوا رحمة للإنسانية ومرهما لجراحها وطباً لأمراضها ، ولأن المفهوم فى أمثال العلماء أنهم أمنوا العثار والزلل فى القول والعمل ، ومن لم يكن كذلك فقد نزل عن رتبة الفضل والتقدير ، ووقع فى حفرة التحقير .

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب . ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد ان على مافى قلبه وهو ألد الخصام » .

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .

العلم فى ذاته فضيلة لأنه يزيل رذيلة الجهل . والجهل ظلمة والعلم نور ، والجهل عمى والعلم بصر والجهل موت والعلم حياة « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها »

العلم فضيله جليلة ، مافى ذلك ريب ولا مرية ، ولكن فضل تلك الفضيلة فى فى استغلالها والانتفاع بها ، فعلى قدر نفاستها تكون نفاسة ما تؤدى إليه .

وبمقدار قيمتها كانت خسارة من لم ينتفع بها وآثامه وحسابه العسير .

ومن حق العلم على صاحبه أن يشعر الناس بمنزلة العلم الذى يحمله ، وذلك بتلبية داعيه الكريم ، والعمل بما يقضى به فى جميع الشئون وإلا استهان الناس بذلك العلم وحامله ونسبوه إلى الحمق أو الجنون ، ووضعوا نصحه وتوجيهه موضع سقط المتاع ومالا وزن له وتأمل فيما يقول الله سبحانه .

« كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

وبعد فما ظانك بشمعة تضىء للناس وتحرق نفسها ، وطبيب يداوى وهو سقيم أيأمنه الناس على شىء .

وغير تقى يأمر الناس بالتقى   طبيب يداوى الناس وهو سقيم

طالب العلم

بين ماضيه وحاضره

طالب العلم الدينى فى ماضيه من اتجه إلى المعارف الإسلامية برمته ، وأقبل عليها إقبالا تاما لا يصرفه عن ذلك محاولة دنيا يصيبها ، أو امرأة يتعرض لها ، أو فتنة تلهيه عنها ، قد اتخذ من مسكنه معهدا لا يفتر فيه عن التحصيل . ومن مراحه ومغداه إلى العلم السبيل ، ومن خلق الإسلام والتصوف عدة وعوناً ، ومن الحرص والجد وصحبة الشيوخ والتمسح بهم منجاة ومسلكا . قد ذل طالباً فعز مطلوباً . واستغنى بالله والعلم فأمسى محبوبا

ويظل يصغى للحديث بأذنه وبقلبه ولعـــله أدرى به

وهكذا كان أبناء الأزهر تخرج بهم رجالا من الذين سعدوا وسعد بهم تاريخه ، كانوا من خبايا الدهر فأصبحوا يحكمون على الدهر. كانت أسر الكثرة منهم فقيرة مغمورة فصاروا لها مجدا .

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف كما علا برسول الله عدنان

فليت شعرى ما الذى رفع هؤلاء ، ووصل بهم إلى ذلك المجد الشامخ ؟ إنه العلم والتحصيل ، والدرس الطويل ، والاحتيال لصيد العلم وجمعه فى نهم مقبول . أولئك الذين كانت تقتحمهم الأبصار ، وتنبو عنهم الأنظار ، هم الذين سعدت بهم الملوك فلم يحل عيشهم إلا فى رضاهم ، ولم يستروحوا روح الجنة إلا فى معشرهم ، ولم ينفضوا غبار الألم من الدنيا وتقلباتها إلا فى خلس العيش معهم ، وهم القوم لا يشقى بهم جليس .

لقدطالما وفدعلى الأزهر الكريم قوم شرح الله صدورهم للاسلام ، فحاطهم بلطفه ، وصنعهم على عينه ، ولفتهم إلى وجهه ، فنظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس

إلى ظاهرها ، وعشقوا العلم عشقاً أنحل أبدانهم وقرح أجفانهم ، وجافى عن المضاجع جنوبهم فى تنافس حميد وتعاون مجيد، ثبت على الحق أقدامهم ، وحبس على البحث والتنقيب أنظارهم ، مجالسهم حلق العــلم حول شيوخهم يتلقطون فيها الدرر ، ويمخضون فيها الفكر ويباركون فيها الإنسانية ويدحروا بها البهيمية ثم يقومون وقد ملأوا الأوعية معارف ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، وميزهم به على كثير من عبــاده المؤمنين ، فاذا آبوا إلى مثاويهم فما أسعد الأوبة ، إنهم يتعجلون بمــا يقيم أصلابهم ، ليعودوا إلى ما به تعلقت قلوبهم ، فيجددون حلق العلم بعضهم مــع شيوخ يتطوعون بترشيحهم فيما هم بسبيله ، وبعضهم مع بعضهم ، ليرشحوا أنفسهم لدروس الغد ، حتى يستطيعوا أن يعوا عن الشيوخ ما يقولون ، ليرسخ فى أذهانهم ، ويحتل مكان الخلود فى عقولهم ، والعلم صعب يعوزه الأخذ والرد ، والمد والشد ، وهم بعد تلك الحلق فى جهاد أنفسهم يستعيدون ماجمعوا ، ويستزيدون مما أخذوا ، والعلم بحر لاساجل له لا يمل إعطاءك حتى تمل سؤاله .

فسل أولئك الذين كانوا يربطون أنفسهم فى سوارى المسجد خشية أن يقصدهم النعاس ،وسل أولئك الذين كانوا يتناوبون النوم حتى لا يستغرقوا فى الغفلات ،وسل أولئك الذين كانوا يهبون فى ساعات الصفو بالأسحار ، ويتعرضون لنفحات الله ويجلون قلوبهم بالتماس رضاه ، حتى تنطبع فيها الحقائق ، أو سل عنهم لتعلم مبلغ جهادهم وأنهم ما وصــلوا حتى بذلوا ، وما نالوا إلا بعــد أن جالوا وصــالوا ، ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل ، على أنهم قد أخلصوا لأساتذة كرام قد محضوهم النصيحة ، ونقحوا لهم لباب الشريعة ، ووفروا أنفسهم للاستزادة من العلم والمعرفة شرابا مختلفا ألوانه ، يباكرونهم بالغذاء العقلى ، ويبادلونهم ذلك الحب السماوى ، فبحب الأساتذة لأبنائهم توفرت أسباب التمحيص، واجتمعت وسائل الإفادة المثمرة ، وعبدت سبل العلم وعذبت مناهلة ، وبحب الأبناء اساتذتهم خضعت نفوسهم وخشعت قلوبهم، وتقبلت عقولهم ، فأفادوا معارف مباركة ميمونة ، لقد

أسلموا قيادهم لأولئك الشيوخ ، واستسهلوا منهم كل صعب ، واستحلوا منهم كل مرير ، حتى كانوا يرضون منهم ما يرضى العبد من سيده ، وحتى كانوا يتسابقون إلى أحذيتهم يحملونها ، ويرون فى ذلك الفتوح والسعادة لأن الذل فى هذا السبيل هو العز كل العز .

كان لطلاب الأزهر كما يقول الأستاذ الزيات كلف به لا ينتهى ، وثقة برجاله لاتحد ، وانقطاع إلى جواره لا يبغون من ورائه غير فقه الدين وتحصيل المعرفة ، وتجديد حبل الدعوة ، فهم عاكفون على معاناة الدرس ، قانعون بميسور العيش ، لا ينصرفون من حلقات التعليم بالقاهرة ، إلا إلى حلقات التعليم فى الريف . وطلاب الأزهر القديم اليوم لا يزالون يذكرون ما لشيوخهم من الحب والتجلة ، كانوا يتحلقون حول حلق الشيخ من غير نظام ولا ضابط فيكون لهم على السبق إلى الأمام عراك وصخب ، حتى إذا ما أقبل الشيخ خشعت الأصوات وسكنت الحركات ، حتى كأن شيئاً علق بالأنفاس فلا تنسم ، وعقد الشفاه فلا تنبس ، وربما نزا اللجاج على لسان أحدهم أثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنكى فى عقابه من الإشارة اليه بالخروج من الدرس . أو الدعاء عليه بالقطيعة من الأزهر (١) .

لقد كان الطلاب يتنافسون فى العلم ، ويكاثرون بالعلم ، ويفرحون بالعلم وينتصر بعضهم على بعض بالعلم . ويتناقلون فيه ما يقول بعض واصفيه .

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى من وصل غانية وطول عناق
وتمايلى طربا لحل عويصة خير من الدوكات والعشاق

كان الجامع الأزهر فى جميع أوقاته كعبة لا ينقطع وافدها ، ولا الدوى بالعلم فى جميع ارجائها ، ولا تخلو من قارىء وناظر ، ومكب على الدفاتر ، وراكع وساجد . فجزاهم الله بما صبروا أن بدل ذلهم عزا وفقرهم غنى ، وضعفهم قوة ، وجعل كلمتهم العليا ، واخضع لهم الدنيا فلسان حالهم .

(١) ١٨٥ وحى الرسالة .

ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا   وإن نحن أو مأنا إلى الناس وقفوا

وقد أدركنا من ذلك العهد الكريم جانبا، واتصلنا ببقية صالحة ممن كانت أسماؤهم تجلجل وذكراهم تدوى حتى ملأت سمع الأرض، ولقد كنت ممن يحرصون على التمسح بهم، والتزاحم على دروسهم قبل دروسهم وأنا أتمثل .

تمتع شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

وكان من أولئك حضرات الأئمة الأعلام طيب الله ثراهم : الشيخ محمد بخيت المطيعى ، والشيخ محمد حسنين العدوى والشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ السمالوطى والشيخ سيد المرصفى رضى الله عن الجميع وأحسن جزاءهم ،فكنت أوفر من صفوة حياتى زمنا أسمع فيه منهم وآخذ عنهم ، وكان يجمعنى مع شيوخى التلمذة لهم، وانتهاز الفرصة فى بقائهم ، تقديرا لما حملوا من علم غزير ، وإيمانا بما وصلوا اليه من المعارف قد تعز بفقدهم .

وكان والدى رحمه الله ينهج نهج أولئك الأئمة ، فيدأب على خدمة العلم فى المسجد وفى المنزل ،وفى المدينة والقرية، ويحملنى على صحبته والأخذ عنه، وحضور دروسه التى كان يعقدها فى أشهر الأجازات فى الفقه والمنطق والبلاغة وغيرها، وغرس ذلك فى نفسى معانى لا أزال أبكى على فقدها فى أبنائنا اليوم ؛ أولئك الذين صرفتهم شواغل المجتمع الصاخب حتى صفرت وطابهم ، وخلت عقولهم؛ وصدئت قلوبهم فاستثقلوا العلم وجافوه وصاروا يشكون فى غير شكوى ، وينفرون فى غير نفرة ويحاولون أن يحملوا أنفسهم على المجتمع حملا ـ أصلح الله بالهم ؛ ورد إليهم رشادهم ـ أنهم يشكون أحيانا من مناهج الدراسة . وصعوبة الكتب لأنهم لا يوفونها حقها من التفرغ والإقبال .وقد كنا نحضر لأول عهدنا بالعلم أوجه إعراب البسملة على جميع وجوهها ، مما تعى به أفهامنا ،وتضيق عنه مداركنا نحمل أنفسنا عليه ونحفظ ما أعيا فهمه ،حتى يحين وقته ما يحول ذلك دون الصبر والرضا والإيمان بعظم المطلوب .

فالذنب إذا يا طلاب العلم ليس ذنب المناهج ، ولا طرق التعليم ، وإنما هو ذنب التشاغل والتكاسل ، والقذف بأنفسكم فى ذلك المجتمع الصاخب ، هو ذنب الغرور والطيش من ابنائنا الذين يزعمون انهم يملكون قيادة الأمور ، ويديرون دفة الشئون والتحكم فى مصائر الرجال والحكومات بإسقاط او إنهاض(١) ، وإلا فمن للدرس والتحصيل ، ومن للتهذب والتكميل ؟ وإن كتب الأزهر بالذات كتب مركزة ، وثقافات عالية مركبة ، ومجموعة يدخل بعضها على بعض . ويحتاج بعضها إلى بعض فمن قصر فى شيء منها بدا ضعفه وظهر عجزه .

أما نحن فما كنا نفكر فى تلك المناهج ؛ بل كنا نحاول أن نطلب المزيد ونتنافس فى ذلك ، لنصل من قلوب الأساتذة إلى موضع الحب كل بقدر طاقته . وكان لنا أستاذ بحاثة فى مادة الأصول ، وكان يعلم مقدار حرصى على القراءة والاستزادة ، فربما جاء قبيل البدء فى الدرس ، فسألنى عن رأيى فى مسألة ، وعما قرأت فيها من المواد لعله يجد عندى مزيداً يزيده هدى ، فإن العلم بحث وتنقيب ، ولقد كان لذلك أثره فى تربية ملكة الاستقلال وفى تكوين الشجاعة المهذبة الحميدة ، وفى إطالة النفس فى المناقشة البريئة .

ثم كان لنا أستاذ يشار إليه ويعول فى علوم الشريعة وفى مادة الأصول عليه — شفاه الله(٢) — وكان يقرأ لنا كتاب الأحكام فى الأصول ، فرأى يوماً أن فى الكتاب خطأ مطبعياً بزيادة كلمة « لا » أو نقصها — لا أذكر بالتحديد — وكنت قد فهمت الكتاب على وضعه ولم أشعر فيه بخلل . فناقشت شيخى وكنت قليل المناقشة جداً ما لم يلح الداعى إليها ، وطال أمد المناقشة حتى ردعنى شيخى ، فسلمت فى أدب وحيـــاء وأنا مقتنع بفهمى ، فلما كان اليوم الثانى جاء الشيخ ، وكان أول ما بدأ به أن سأل عنى ، فلبيت دعوته الكريمة ، فبسم لى وتهلل فى وجهى ، ودعا لى بخير ، ثم قال : الحق ما قلت فتضاعف خجلى ، وزاد

---

(١) كان ذلك قبل هذا العهد الذى نجح فى وضع الحدود لكل الطوائف والافراد .

(٢) واليوم يرحمه الله ويسقى جدثه .

تقديرى لشيخى ، على أنها كانت وسام شرف ، وشارة فخار ، أنزلتنى من نفوس إخوانى أكرم منزل .

و لئن ذهبت أسرد لك أيها القارىء الكريم كثيراً من مظاهر الحرص والدأب فى عهدنا . وهو عهد قريب لرأيت العجب ولرثيت لما صارت إليه الحال اليوم من إعراض وصدود ، ومن جرأة واستهانة بالواجب .

ياطلبة العلم ؟ لعل كثيراً منكم قد قرأ ماوصف به الهمذانى العلم ، وهو وصف يعجبنى كثيراً إذ يقول : « وجدته بعيد المرام ، لايصاد بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولايرى فى المنام ، ولايضبط باللجام ولايورث عن الأعمام : فتوسلت إليه بافتراش المدر ، واستناد الحجر ، ورد الضجر ، وركوب الخطر ، وإدمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكر ، ورأيته لا يصلح إلا بالغرس ، ولايغرس إلافى النفس ، وطائر لايخدعه إلا قنص اللفظ ، ولايعلقه إلاشرك الحفظ ، فحررته بالدرس ، ثم استرحت من النظر إلى التحقيق ، ومن التحقيق إلى التعليق ، واستعنت على ذلك بالتوفيق » .

يا طلبة العلم ! نحن الآن فى زمن نراكم فيه كما قال الأول :

فلسنا كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وإنه ليحز فى نفسى ويبكينى لكم ، أن أحاطت برقابكم السلاسل ، من تلك الشواغل ، فتوليتم فى الأمة الشئون ، وشغلتم أنفسكم بما كان وما يكون ، حتى ضاع العمر سدى ، ومضت فترة الشباب بددا ، لقد غركم أن تسمعوا الثناء ممن لا يعنيه أمركم ولا يرجو مستقبلكم ، فهل يرضى أحبتكم من أهل وعشيرة أن تنفقوا العمر فى ذلك الفضول ، وأن تنحرف بكم عن الجادة خابطات الميول ؟ لا لعمر الله !

يا طلبة العلم ! رحم الله امرأ عرف قدر نفسه فزكاها ، وكملها ، جددوا خلايا

العلم فى عقولكم قبل أن تأكلها الجهالة ، وأزيلوا الران عن قلوبكم لا تفتك بها الضلالة ؟ لا تعملوا للنجاح فى الامتحان ، فإن علم الامتحان كالسراب ليس بشىء مستقر ولكن اعملوا للنجاح فى الحياة كما كان أساتذتكم الذين أنبأتكم بعض أنبائهم .

ياليت شعرى متى تزول هذه الأسداد التى صدت أبناءنا عن سبل العلم الصحيح والتربية الصالحة المشرقة ، وياليت شعرى متى تدركنا عناية الله سبحانه فنعود بالطالب إلى تلك النفس الزكية ، وتلك الشخصية العامرة بالدين ، المعتزة بالله رب العالمين ، المثرية من معارف الإسلام والأدب ، الحافلة بمختلف علوم العرب ؛ فيطلب العلم للعلم ؛ ويأخذه عن الأشياخ الذين سلكوا سبيله فعرفوا أصيله ودخيله ، وأخضعوه بكثرة الرد ، واستحوذوا عليه بعد طول مد وشد ؛ حتى يقروا عين الزمن ؛ ويشدوا بحق أزر الدين والوطن .

اللهم لطفا بعيالك طلاب الأزهر معقل الدين وعلوم العرب . فبصرهم بالحق ؛ واهدهم إلى الرشد ولا تحق عليهم كلمة الجهل يوم تقبض العلم بموت العلماء ؛ حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلو فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

اللهم أقشع عنا هذه الغيابات . وتدارك بألطافك الخفيات . ياأرحم الراحمين

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السراويل

اليوم تبدل الحال إلى خير كثير ولكنا نثبت المقال كما ورد فى وقته فهو لا يخلو من فوائد .

فى العدل والجور

فى كتاب الله سبحانه « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

وفى السنة النبوية الكريمة « عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة »

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فان العبادة توجيه سليم ، وتهذيب عظيم به يكون الإنسان خليفة فى الأرض قائماً بالقسط ؛ حتى يحيا الناس حياة طيبة فى دنياهم ، وحتى يسعدوا بجوار الله الكريم فى آخرتهم .

شهد بذلك الكتاب والسنة ، فإن كتاب الله سبحانه يقول : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» ويذكر أنه فرض الصيام لتهذيب المؤمن « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . ويذكر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأن الزكاة طهرة وزكاة للنفوس ، « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » ، والسنة وزير الكتاب ونصيره فانها تقول « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » و « من لم تنهه صلاته فلا صلاة له » وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها . فقال : لاخير فيها وهى من أهل النار . وما أكثر ذلك المعنى فى الدين . وجماعه فى قول الله سبحانه « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » . ولهـــذا قال العلماء إن أحكام الشريعة الإسلامية دائرة حول أمرين : جلب المنافع ودرء المفاسد . ولعل أساس ذلك

كله العدل ؛ فهو الميزان الذى وضع الله لعباده ، لاتصلح حياة إلا عليه ، ولا يقوم نظام إلا به : وهو القسطاس الذى أراد الله سبحانه لعباده ؛ فما عبد الله من تنكب عنه ، ولا عرف الله من أنكره .

إن العبادة الحق خشوع فى القلب ، واتصال بالرب . ولن يكون خشوع واتصال إلا ومعه ميزان واعتدال « ولقد ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين » .

وما كان الله ليقبل شخصاً فى ملكوت السماء حتى ينزل على حكم الحق ، ويكون هواه فى كنف القسط والعدل ، لا تميل به شهوة ، ولا تستهويه نفس جامحة .

إن العبادة الحق، دين قيم . ولا دين إلا بالعدل فى القضية ، والمساواة بين الرعية ، على اختلاف جهات الرعاية ، ولو كان الراعى مالكا لما يقضى فيه . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن جاءه يشهده على هبة لأحد أبنائه : هل وهبت لأخيه ؟ قال لا ، قال : فأشهد غيرى ، لا أشهد على زور ، اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم .

إنه لادين حتى يكون عدل تعمر به الأرض ، ويأمن به الخائف من الخوف وحتى يرحم الكبير الصغير ، ويوقر الصغير الكبير ، ويتعاون الكل مع الكل ، ولذا يظهر ذلك المعنى حق الظهور فى عهد النبيين والخلفاء الراشدين والأئمة الصالحين . وأخبر رسول الله أن تمام هذا الدين يتمثل فى أن يسير السائر مسافة كذا وكذا لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . فالدين الصحيح يتمثل فى العدل والعدل يتمثل فى السلام والأمن . والعدل من أمثل صفات النبيين والمصلحين . ولذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم لمن شك فى عدله : ويحك من يعدل إذا لم أعدل ! يشير بذلك إلى أنه أحق بالعدل . لأنه أحق الناس بالدين .

وفى الكتاب والسنة كثير من التوجهات ذات الدلالة على أن مرضاة الله

فى العـــدل وسخطه فى البغى . فهو ينتقم من الظالمين . وينصف المظلومين ولو بعد حين .

لقد كان قارون من قوم موسى فبغى عليهم فخسف الله به وبداره الأرض : ولقد علا فرعون فى الأرض وجعل أهلها شيعا . واستكبر هو وجنوده فأخذهم الله سبحانه فنبذهم فى اليم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين .

وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . فدمرهم الله وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .

وكل أخبار الأمم السالفة فى قصص القرآن تدور حول الظلم والطغيان وجزاء الظالمين . لقد تردد هذا المعنى فى الكتاب بما هو جدير بأن يكون عظة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وكذلك سارت السنة تساند الكتاب الكريم وتسعده ، فقال السيد الرسول صلى الله عليه وسلم « إن الحية لتأرز إلى جحرها من ظلم ابن آدم . ثم تلا « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة » الآية ، وقال السيد الرسول صلى الله عليه وسلم « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » . ثم تلا « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ، وفى الحديث الصحيح « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أعلم ، فمن قضيت له بشىء من مال أخيه فإنما أقتطع له قطعة من جهنم » .

وإذا كان الرضا فى العدل والسخط فى الظلم ، فإن العـــدل خير من العبادة مع الظلم ، وعدل يوم واحد خير من عبادة ستين سنة ، لأن العبادة بدونه غير مثمرة ولامؤدية لما هوالمقصود . وإذا كانت السنة الكريمة قد نصت على عدد معين وهو الستون من السنين ، فإن العدد فى ألفاظ الدين لا يراد به التحديد ولكنه للتأثير والتسديد ، فما أكثر العدد فى ألفاظه من غير قصد إلى ظاهر دلالته .

وبعد : فإن الدين ليس صورا من العبادات فى صلاة وصوم ، وتحريك الشفة

بما يوهم أنك من خيرة القوم ، وإنما الدين إيمان يخالط السويداء ، ونور من الله يقتحم فى النفس إلى كل داء ، فيشفى الصدور ، ويخرج منهـــا كل بغى وزور ، ويبدد كل رعونة فى الإنسان المسكين ، كما يبدد الفجر ظلام الليل البهيم : يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم .

إن الدين إصلاح فى الأرض ، وسعى بين النـاس بالخير ، ونصفة للمظلوم ، وأخذ بناصر كل مكلوم ، ومسح برأس البائس ، وتخفيف من آلام المحروم اليائس ، وطهر وصفاء ، وصدق ووفاء ، وجهاد فى سبيل الحق ، وحمل للنفس على المذهب الأشق ، لتقف فى حيز الصراط المستقيم ، ولا تغلو أو تهبط . فكلا الطرفين ذميم . ذلك هو العدل الذى وضع الله لعباده .

والعدل إنما يصح فى نفس تخشى الله به ، أو تخاف التلف أو الشقاء . والأول هو العدل الإسلامى الذى تعبد الله به عباده ، والثانى هو العدل النظرى الذى قصد اليه الحكيم بقوله : الملك يبقى على الكفر ، ولا يبقى على الظلم . فكفر مع ذلك العدل النظرى أسعد للملك ، وأبقى له من إيمان لا عدل معه . وفى ذلك تعزيز للحديث الذى جاء فى صدر هذا المقال ، والذى يدور حوله . وقد ظهر للقارىء الكريم أن الحديث عن العدل الدينى الذى يكون منزعه مراقبة الله ، وخشيته . فهو من غير ريب وليد التدين ، ونتيجة التحنث . فكلما صفا القلب لله ، وتعرف إلى ساحة مولاه ، بإدمان الاستغفار ، والقيام بالأسحار ، وتلاوة كتاب الله ، وإقام الصلاة ، والإنفاق فى رضاه ـ كانت الاستقامة والاتزان ، والنفع والحنان . والإصلاح والإحسان ، وذلك هو العدل والميزان ؛ وإن خبث القلب بالفسق والعصيان . وعشا عن ذكر الرحمن ، أثمت الجوارح فلا تخرج إلا نكدا ، ولا ترضى أحدا ، ثم تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير .

إن العدل فى ذاته معنى واسع فسيح ، فهو يكون مع من فوقك ، ومع من دونك ، ومع من يساويك ، وتفصيل ذلك فى كتب الأخلاق . والعدل معنى

غامض فى جزئياته محفوف بمخاطر الهوى . والهوى إله يعبد . ولذلك عز تحققه، ورفع إلا من قليل النزوع إليه فخلط الناس وخبطوا ، وغلوا واشتطوا . فليس هناك إلا فى النادر العزيز من ينصف من ابنه أو أبيه ، ومن يحكم لخصمه ومعاديه، ولكن الكتاب ينطق بالحق «كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » «كونوا قوامين لله شهدا بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

وقد عرف ذلك أولو العزم ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ووضع ربا عمه العباس قبل كل الناس . وعرفه عمر فأخرج ابنه من ولاية المسلمين لئلا يكون إثنان فى بيت الخطاب . يليان ذلك الجانب الخطير . رحم الله عمر . وهل يقول الله سبحانه فى كتابه « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » الا والعدل معنى غامض ، ومرام عزيز . « وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » .

أفبعد هذا يستطيع إنسان أن يستهين بالعدل ولا يضعه من الدين فى السنام ، ويقر بأن عدل ساعة خير من عبادة كثير من الأعوام .

لقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم سبعة يأمنون يوم يخاف الناس ، ويستظلون بظل العرش يوم لا ظل إلا ظل الله ، فبدأ بالامام العادل لأنه إمام هؤلاء ومقدمهم . ولولا خطورة العدل وبالغ أثره فى إصلاح الحياة . وغمرها بالخير والسعادة ، لولا ذلك لما كان ذلك الوضع من الرسول الحكيم ، والنبى الكريم . وهل كان الصديقون من المؤمنين يتحرجون من الولاية ، وينفرون من قبول القضاء ، إلا لما رأوا من خطورة ما استهدفوا له وتعرضوا لمزالقه . سجن الإمام الأعظم أبو حنيفة على أن يلى القضاء وضرب بالسياط ، فاحتمل كل ذلك فى جنب الله ، لأنه رأى القضاء مظنة الظلم ، والظلم معصية ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

أين ذلك العدل الذى جعل عمر وهو الأمير الشديد فى الحق ، القاسى فى التحامل

على كل مشتط ، ينام فى الطريق بلاسلاح ولا حارس ، لا يبالى فى الله أن يؤلم أى كبير ، ولا يستثنى من درته أى وال أو أمير ، الضعيف عنده قوى حتى يأخذ له بحقه ، والقوى ضعيف حتى يأخذ الحق منه .

إن كل فساد فى الأرض وشق لعصا الطاعة . ومشاقة للجماعة ، وقتل وفتك ونقض للعهد ، وتعد للحد ، وتظاهر بالإثم والعدوان ، واضطراب فى نظام العمران — إن كل ذلك من الجور بين الناس . « وكذلك تولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » . بل إن كل قحط وجدب ، وضيق وضنك ، وجوع وخوف ، وبلاء وانتقام من الملك العلام هو من التظالم بين العباد ، وبما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون .

وإن كل خير ورشد ، وصفاء وود ، وتعاون وتساند ، وهدوء سائد وإخاء وإصلاح . هو من تنسم ريح العدل الرخاء ، ووضع كل شىء فى وضعه غير ناب ولا قلق .

ولم يجمع الناس على تقدير فضيلة إجماعهم على تقدير فضيلة العدل التى هى القلب النابض لجميع الفضائل ، ولا أجمعوا على إنكار رذيلة إجماعهم على إنكار الجور والمظالم . فكيف لا يكون عدل يوم يقوم فيه معوج ، ويغاث فيه ملهوف ، خيرا من كثير من العبادة التى يقصر خيرها على صاحبها ولا يتعدى إلى سواه .

لقد ضرب الله سبحانه وتعالى المثل للعدل فى أدق صوره حتى فى أتفه شىء وأحقره عنده وهو الدنيا ، فجعلها بين الناس دولا ، لهذا زمان ولهذا زمان ، فكانت مصائب قوم عند قوم فوائد ، وكان النظام كما قال القائل :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

بل كان أدق من هذا ، فجعل الأيام قسمة للشخص الواحد ، فيوم لك ويوم عليك . ذلك عدل الله وحكمه فى السماء . فمتى يرضى عباد الله أن يكونوا قوامين

بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما . ويارحمة السماء لمن فى الأرض .

نقيصتان

يقاوم الدين الإسلامى (وهو دين الإصلاح الشامل ، والمثل الأعلى للاجتماع الصحيح) نقيصتين هما أفتك الصفات بالأمة وأسوأها أثراً فى تكوينها . كلتاهما مفرق لكلمة الجماعة مقطع لروابط الإخاء : ماحق للبركة : مضعف للشوكة : وكلتاهمامؤسس على إيثار الدنيا . وهى رأس كل خطيئة، وأس كل مأثمة ، وكلاهما ضعف فى الإيمان بالله وفى قدره حق قدره ، وجهل بحق هذا الخالق الرازق العظيم وحق عباده ، الظلم والشح ، والظلم وضع الشيء فى غير موضعه ، وهو كالطبع لا يفارق الإنسان إلا رياضة وجهادا . إن الإنسان لظلوم كفار !

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهو على ذلك قبيح بشع . لو تمثل للناس لهالهم منظره . ولخروا صرعى أمام شدة قبحه وفظاعة وحشته ، وهو مع العدل كالأعمى والبصير . والظلمات والنور والظل والحرور . فبقدر مافى العـــدل من محاسن تتجلى فى الحب والصفاء . والتناصر والولاء . وفى العمران والقرار . وراحة ضمائر الأحرار . واستدرار رحمات السماء وبركاتها . يكون مقدارمافى الظلم من مقابح تتمثل فى العداوة والبغضاء وفى التقاطع والالتواء . وفى التخريب والتدمير . وفى تعب القلب وحرج الضمير . والاستهداف للعنات السماء وبلائها . . لو علم الظالم أنه باستباحته أن يظلم أخاه فى ماله أو عرضه أو دمه قد أساء إساءة بليغة إلى عدة نواح كانت جديرة منه بالإنصاف كل الإنصاف ، لما له من حقوق تتطلب إحسانا لا إساءة ، وإفضالا لا بخسا ، لو علم ذلك لفر من الظلم فراره من الأسد حتى لا يفتك به .

ولكن الظالم ضحى بكرامته وتعرض لتلك الخسيسة فى سبيل شهوة كاذبه ، أو ثورة طائشة ، أو نزوة جامحة ، أو فتنة خادعة ، أو أية باعثة متضعة ، فكان من الخاسرين . وتلك النواحى التى أساء اليها الظالم أخوه المظلوم الذى أمره الدين والاجتماع والعرف بالاحسان اليه ، ونهى عن العدوان عليه وقد شددت الاديان السماوية فى ذلك إلى أبعد حد ومدى ، فقال الله سبحانه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عزوجل : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ،كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ، كل هذا يضحى به الظالم فلا يبالى أن يسىء إلى من امر الله بالإحسان اليه ، ودعت الشرائع إلى تكريمه والحدب عليه ، ثم هو بعد يعرض نفسه لخصومة أخيه ، وما كان أحوجه ان يجعلها تعاونا ومودة ونصحا ومحبة .

ومن تلك النواحى ، فانها نفسه التى بين جنبيه ، فقد رضى لها بصفة الظالم ، ووضعها فى تلك الخسيسة التى كان ينبغى أن يكرم نفسه عنها ، ولا يجعل لنفسه سبيلا إليها :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه فنى صالح الأعمال نفسك فاجعل

لقد أساء الظالم إلى الجماعة التى يعيش فيها . لأنه أساء إلى عضو منها . والجماعة يغار بعضها لحرمة بعض . وأساء اليها . لأنه قرر جريان الظلم بين ظهرانها وشجع عليه . ودعا بفعله إليه . فهو عامل هدام فى المجتمع . شريك فى كل مأثمة تجرى من هذا النوع . وإلى ذلك تشير الآية الكريمة : « من أجل ذلك كتبنا على بنى

إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . والأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم : « من دعا إلى ضلالة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » . ولهذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم « مامن نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها ، لأنه أول من سن القتل » . ثم إنه أساء إلى خالق هذا الكون ، لأنه عصاه فى أهم ما يدعو إلى تركه والإعراض عنه ؛ ولأن الله أراد الوئام ولكنه آثر عليه الخصام ، وأن الله دعا إلى المحبة والألفة ، لكنه آثر فى سبيل بغيه العداوة والفرقة ، فويل للظالمين .

الظلم شؤم فى الدنيا على صاحبه ، وعلى من يحف بصاحبه وعلى مايحل به صاحبه من منزل أو قرية ، او محلة ، قال الله سبحانه : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب » « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا . » ، وقال كعب الأحبار يوما لأبى هريرة مكتوب فى التوراة : « من يظلم يخرب بيته » . فقال أبو هريرة : تلك فى كتاب الله تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

إذا كان للظلم عقاب مؤجل إلى يوم تشخص فيه الأبصار ، فإن له عقابا فى الدنيا معجلا يراه الظالم فى نفسه ، ويراه الناس فى عقبه شماتة وتشفيا ، وقد قال النبى صلوات الله عليه : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم تلا الآية الكريمة : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » وفى الحديث : « لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما » .

أما عقوبة الظالم يوم يقوم الأشهاد ، يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، فإنك تستطيع أن تتمثلها فى قول النبى : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة » ، وماذا عسى أن تكون الظلمات إلا تلك الشدائد والأهوال فى يوم

الحساب ، يوم يظهر إفلاس الظالم ويلق به فى نار جهنم ، ويحبط عمله مهما قدم من خير . قال النبي صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم قذف فى النار » .

وأما الشح : فإنه البخل بالمال والحرص عليه ، وهو يدعو إلى الظلم ويهتف به ، بل هو عند التحقيق باب من أبوابه ، فمن حبس المال عن حقه ، وبخل على أخيه عند حاجته فهو من الظالمين فى أفحش أنواع الظلم وأشدها فتكا برابطة الجماعة وإيقاعا فى استباحة الدماء والمحارم ؛ لهذا قرن بينهما النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى أخرجه مسلم : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الضن بالمال يوجب التمادى فى حبه وإيثاره وكثيرا ما يجر ذلك إلى التعادى والتمادى فى الباطل فيقع الهرج والمرج وتستباح المحارم ويتجر فى الأعراض ، وإن التاريخ لشاهد صدق على مافعل المال وإيثاره بالأفراد والجماعات مما جمع شمله بيان النبوة الكريم (إن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) .

ولهذا يقول الله سبحانه « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » والآية الكريمة تفيد أنهم المختصون بالفلاح وأن أهل الشح من الخاسرين .

وقد صور النبي صلى الله عليه وسلم كلا من السخى الكريم والبخيل اللئيم فى صورتين متعاديتين احداهما محبوبة مطلوبة ينشدها كل من له بصر، ليجد منها كل

سعادة وظفر والأخرى بغيضة كريهة يفر منها كل من ذاق الإيمان فآمن بالله ورسوله واليوم الآخر عن يقين صادق وذلك فى حديث أخرجه الترمذى عن أبى هريرة والبيهق عن جابر . السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيدمن الجنة قريب من النار ، فقد جمع للسخاء الخير كله ووجه إليه كل ذى طبع سليم .

فمن ذا الذى يرى طريقا إلى قربه من الله فلا يسلكه ، وهو مالك التواصى ، ومالك الخير ، ومالك يوم الدين ، وهو على كل شىء قدير .

ومن ذا الذى يجد السبيل إلى حب الناس ورضاهم ثم لا يطرقه وهو الكنز الثمين والربح فى الدارين للرابحين .

من ذا الذى يرغب بشراء جنات تجرى من تحتها الأنهار أعدت للمتقين خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ثم يعرض عنها وينقلب عن سبيلها .

لقد ظفر السخى الكريم بكل تلك المزايا الكريمة ، وكان البخل فى نقائضها وأضدادها وإن ما ثبت لأحد الضدين جدير أن ينتفى عن الضد الآخر لا محالة فقل لأولئك الجماعين إن كنتم تقدرون عاقبة الجمع والادخار فقد ساء تقديركم ووجب أن تحولوا دفتكم ؛ قبل أن تسجلوا الخسران هنا وهنالك على أنفسكم ؛ وإن كنتم لا تقدرون العاقبة إنكم لأغرار حمق تعملون فى غير تفكير .

هل قرأتم فى الكتاب الكريم : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى » فأنتم أيها البخلاء ميسرون للعسرى وهى أعمال الشر التى تردى لأنكم عناصر خبيثة ما لم يرحمكم الله ويهدكم سبيل الرشاد .

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » لقد جمع الله البخل مع القسوة العارمة والتكذيب بيوم الدين فى

جهنم وبئس المصير » أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين» . «إلاأصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ماسلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين » فهذه هى صفات أهل جهنم فالمرء وما اختار لنفسه — إن الشح مدعاة إلى الشر ، مضيعة للشرف ، دفاع بصاحبه إلى جمع المال من حله أو غير حله لمن ينفقه فى حله أو غير حله من الوارثين فأنتم تجمعون بشهوة الجمع مالاتأكلون . فإذا كشف الغطاء فإنكم نادمون .

قال النبي صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله قالوا ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال : فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر . إنكم أيها الأغنياء وكلاء الله فى التوزيع على عياله الفقراء فأحسنوا الوكالة وإلا قصم الله ظهوركم وفتك بكم أو بأعقابكم وما كان ربك نسيا «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كريم » .

إنه ما آمن بالله من بات شبعان وجاره جائع . ولا شكر نعمة الله من سار مزهوا بثيابه وجاره عريان ، وإن البخل ماهو إلاشك وسوء ظن بالقدر ، وماهو إلافتنة من الشيطان ليوقع بين الناس العداوة والبغضاء والبطش والفتك واستباحة الدماء واستحلال المحارم وإلافإن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا واتقوا الله وآتوا المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين «من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا» اللهم اهد هؤلاء الناس حتى تعمر الأرض ويستقر السلام والوئام .

حول آى الكتاب والسنة

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » .

قل أن تلق من أهل زمانك من خلا من الملق والرياء .

يلقاك يحلف أنه بك واثق   وإذا توارى عنك فهو العقرب

أولئك هم الضعفاء الوضعاء الذين لا يجدون من قوة الشخصية ما يخول لهم أن يواجهو بالحقائق ، ولا يأنسون من أنفسهم إيمانا ببارىء المسموكات أن يأرزوا(١) إلى كهفه ويلجئوا إلى كنفه . وهؤلاء هم الذين يصفهم الذكر الحكيم معيرا ومنددا « وإذا جاءوكم قالوا آمنا وإذا خلو عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط » ويقضى فيهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله بأنهم شرار الناس فيقول « تجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يلق هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . ترى كثيرا منهم قد منحه الله ثقافة فى الفكر ووهب له ذلاقة فى المنطق ، من الذين قال فيهم سيدنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « إن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » .

وما أشد خطورة هذا النوع من الناس على المجتمع « إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم » ! قالوا : يارسول الله ، كيف يكون منافقا عليما ؟ قال : « عليم اللسان جاهل القلب والعمل » . ولقد صدق صلوات الله وسلامه عليه : فإن

(١) يلجئوا

هؤلاء هم الذين ائتمنوا فخانوا ، واطمأن الناس إليهم فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم فكانوا الذئاب العاتية . على أن أمثالهم جديرون أن يظهروا للناس على كنههم ، وأن تتجلى حقيقتهم على وجهها ، وإنها « إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله » .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، فران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . وأخطأهم التوفيق فيما يأتون ومايدعون . فتنة فى الأرض وفساد كبير ، أن تظهر فى حال يعلم الله خلافها منك ، وأن تكون ذا وجهين فيمن عرفته.

هى والله قلوب خاوية ضعفا وهلعا ، خالية من كل إيمان وحكمة ، هاوية فى الدرك الأسفل من الرذيلة ، قلوب أولئك الذين لا يستطيعون أن يواجهوا بحقيقة لدى جهول أنوك ، لم يذق حلاوة الحق ، ولم يبال ألا يكون على صراط مستقيم .

رحمك الله يا بن الخطاب ! لقد صممت قواعد الرجولة فى جماعة محمد حتى فغرت الأفواه بكلمة الحق تسمعها من المرأة المسكينة راضيا مغتبطا ، بل متهللا مستبشرا تقول لك فى محفل العلية من أمة محمد : إن الله يقول غير ما تقول ياعمر ، وتجيبها بقولك : الحمد لله الذى جعل فى الرعية من يرد عمر إلى صوابه . وتدوى بها صارخة لترجم بها الشيطان وتدكدك صرح العنجهية الجاهلية : أيها الناس ! أخطأ عمر وأصابت امرأة . رحم الله امرأ أهدى إلى عيوب نفسى . وتدب إلى مهبط السرائر فى نفوس المسلمين ، لينزل كل جبار عن جبروته أمام الحق ، وما كنت إلا نصيره وأسيره ، ولينكر كل ذى أثره مهما ارتفع ذاته وأثرته . ليس عمر بأكبر من أن ينصح ولا بأصغر من أن ينصح . تلك هى النفس التى

لقحت بحكمة الاسلام ، وهذبت برياضة القرآن ، ولاهم لها إلا أن تقيل الانسانية من عثارها وتصلها بملكوت السماء . وهذه هي خلافة الله في الأرض ، ترفع العدل ، وتخفض القسط .

ياليت قومي يعلمون أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، فيفيئوا إلى رشدهم ، ويلتمسوا العزة والسؤدد في سيرة سلفهم ، ولا ينسوا تلك المحادة القسعاء . فأما الرئيس « الراعي » فينشد الخير العام متجافيا عن الغرور والغطرسة ، يسمع النقد ويقبل النصح ، وينكر الغش ، ويرفض المدح ، إلا ما أعان على خير ، أو وجه إلى رشد ، مايزيده شيء من ذلك إلا ارتفاع شأن ، ولا يرى المنصب منه إلا كل قوة وسلطان ؛ ولعمر الله ما أفلح قوم ضاع الحق بينهم ، وآثروا من ليس عند القبسطاط بأثير وأما المرءوس فيذكر دائما أنه عون أمين لراعيه فهو مسئول عن كل مايشاركه فيه وأنه إذا رآه في ظلم فواجبه تقويمه ، وأنه إلى إرشاده أحوج منه إلى مدحه وإطرائه . « فالذكرى تنفع المؤمنين » . إذا رأت أمتي الظالم فلم تأخذ على يده أوشك أن يعم الله الكل بعذابه » « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » .

ألا قبح الله أولئك الذين يمالئون على الضلال ، ويزكون أفعال الجهال ، لأن لهم سطوة وقوة ، وفيهم نزوة ونبوة ، كأنما تتخلى عنهم رحمة الله إذا سخطوا ، وتصيبهم قارعة أو تحل قريبا من دارهم إذا تنكروا ، « إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » .

ألا قبح الله أولئك المادحين الفادحين ، الذين « اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . . . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو

فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » إن الله سبحانه يوجهنا وجهة القوة ويدعونا بدعاية الكرامة « من كان يريد العزة فله العزة جميعا » .

يريد الله سبحانه ليدعم فينا الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد ، والتفانى فى نشدان الحق حيثما كان وعند من كان : « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » استوى فى ذلك الصغير والكبير ، والآمر والمأمور ، لا تفرقة أمام محكمة البصائر الثاقبة . ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول فيما يصف به حكومة الاسلام وصاحبها صلى الله عليه وسلم :

ورسمت بعدك للعباد حكومة　　لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الكل فيها وحده　　والكل تحت لوائه أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة　　والأمر شورى والحقوق قضاء

فما بال هذا الذى يعجبك قوله فى الحياة الدنيا وليس للناس مسوح الرهبان ، أبعد ما يكون من قداسة الأديان ؟! يا قومنا إن للدنيا سبيلا وللآخرة سبيلا . وإن من سوء التقدير أن تخلطوا . إن ما رسمه ربك لتتعامل به معه فلا يحمل بك أن تجعله سلعة رخيصة بين عباده . إن الله أغنى الأغنياء عن الشرك ، وإنه غيور ، ولا أحد أغير منه . « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

تالله ما رثيت لشيء رثائى لأولئك الدسس الذين يتقلبون فى المجالس يخوضون فى الباطل ويترددون على شتى المحافل يحملون ألفاظا قد حبروها ليشتروا بها عطف الرؤساء فيظفروا بهم ، ويعودوا بهم طورهم بخساً لأصحاب الحقوق ، وإضاعة لذوى الكفايات من العاملين . لقد خسر البائع وخسر المشترى ! « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » الاخلاص لوجه الله ولواجب المجتمع هو الطريق الوسطى والجادة التى يتفاوت الناس فى سلوكها « فمن يعمل مثقال

ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، ولكنه طريق وعر ،ومركب صعب ، لا يمتطيه إلا من وهب له الله سبحانه قوة النفس ، وصحة الطبع ، وإيثار الجد ، وهيهات ذلك إلا أن يوفق الله من شاء من عباده .

تالله إن أمة لن تبلغ الذروة ، وتثب إلى القمة حتى يكون مقياس الدرجات والمنازل فيها الكفايات والأعمال التى تنفع المجتمع ، وترفع من شأن الوطن ، أما أن يكون الميزان أن تتعرف إلى كبير فيختصك ويصطفيك ، أو تلتمس شفيعاً فتذل له نفسك وتريق على بابه كرامتك ، فما شىء أشد فتكا بكيان الأمم ولا أعمل فى تقويض أركانها منه ، فانه مقبرة الكفايات ، ومزجرة الهمم والمنافسات . لقد مسخ التفكير ، وشاهت الحقائق وعميت الأبصار والبصائر ، وعند الله المخرج والمنجى .

يا أيها الناس : إن خزائن الله لا تنفد ، وأبوابه لا تغلق ، وإنه لن يصيب نفساً إلا ما كتب الله لها فى رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . نافسوا فى المكارم لا فى عرض الدنيا الحقير ، خذوا أنفسكم بكرامة الإسلام ،وبعزة الإيمان من حارب الله فى عباده ببغى أو استهانة حربه الله ، إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فليسعهم منكم بسطة الوجه ، وحسن الخلق ، وإيصال الحق الى صاحبه . ارحموا الإنسانيه المتهضمة يسلم دولاب العمل لخدمة الجماعة ولخدمة الفرد .

وأنت ياصاحب الحاجات المعذب ، ويا من تعنى نفسك فى مطالب الحياة ، أرح نفسك ولذ بركن الله الركين ، واعمر قلبك بالإيمان والرضا ، دع كل أمر فى وضعه الطبيعى ، فلا تسرف فى المزاحمة على عرض الدنيا ، ولا تستهدف فيها لخصومات لا قبل لك بها . واعلم أن من ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق ، واذكر انه ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم .

ونفسك أكرمها فانك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

إن الثروة الحق ، فى الخلق الكريم ، والقلب السليم ، والنفس الرضية المطمئنة ، والخلو من التطاحن المزرى ، والتشاحن المقيت الذى يظهر الإنسان فى مظهر الخنزير حرصاً واستماته .

إن القلب السليم لهو ذلك القلب الخير ، يفسح الطريق لسالكها ، ومعاونة الإنسانية فى كل ما يلابسها . هو ذلك الذى يسير بالقسطاس المستقيم ، ولا يرسف فى قيود من تعصب أو محاباة . من يسير الرفق حيث يسير ، وينشر الأمن والبشر ، والبر والخصب ألويته حيث ينزل ، ذلك المعتز بالله المتوكل عليه ، الذى يرى أن الخير كله فى يديه ، فلا يقول إلا حقا ، ولا ينطق إلا صدقاً ، ولا يصدر إلا عن رجولة أى رجولة .

أيها المادح العباد لتعطى إن الله ما بأيدى العباد
لا تقل فى الجبان ماليس فيه وتسم البخيل باسم الجواد

حول بعض آى الكتاب الحكيم والأدب النبوى

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . قرآن كريم

اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علما » . حديث شريف .

حقا لقد جمع هذا الكتاب الكريم ، والنبأ العظيم ، حاجة البشر كلها ، فما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » « وكل شىء فصلناه تفصيلا » حتى كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : لوضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله . وليس معنى ذلك أن الكتاب الكريم يقول له : إن عقال بعيرك فى مكان كذا ، ولكنه صدق إيمان السلف الأولين من هذه الأمة بمكانة القرآن فى الإرشاد والهدى ، وهو الإذعان الصادق لبركته ، وأنه مصدر لتصريف الإنسان فى حياته ، يدله كيف يسير على القسطاس المستقيم حتى فى التافه من أمره ، ومالا وزن له من شيئه : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » .

ذلك مثل من نفعه الله بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأخذ الكتاب بقوة واهتدى بهديه المبارك ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى جاء به « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

من الذى يتلو هذا الكتاب حق تلاوته ثم لا يطامن نفسه من خشية الله ، ويخضع لعظمته وكبريائه ، وهو سبحانه بكل شىء عليم ؟ « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان » . «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . الإنسان مالم يعلم » والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله . إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

سبحانك اللهم وبحمدك لقد جهل الناس جميعا مالم تعلمهم ، ولقد ضلوا ما لم تهدهم ، إيمانا بعظمتك ، وعرفانا لحق ربوبيتك . « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ويل لابن آدم ! فوالذى نفسى بيده لولا مامنحه الله سبحانه من كرامته، وسخر له من كائنات خلقه ، إذاً لفضله كل مافى هذا الكون من حيوان ونبات وجماد ! لقد عرض الله سبحانه الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا . « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » وهل يقول الله سبحانه « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو تعلم البهائم ما تعلمون من عذاب الله ما أكلتم منها سمينا » الا لتعلم أيها الإنسان أن ميزتك فى هذا الوجود إنما هى الانتفاع بالعقل ، والاتعاظ بالاعتبار والفكر ، فاذا لم تكن ذلك الممتاز فكل ما فى الوجود خير منك .

هذا الكتاب الكريم يوجه النفس الانسانية وجهتين عليهما قوام الحياة وسعادة الأسرة الآدمية : يوجهها وجهة الحق والمعرفة الصحيحة ، ويوجهها وجهة لسمو الخلق ، والأدب القويم .

والوجهة الأولى هى الأساس الذى إذا سلم صح بنيان الحياة وقام نظامها وإذا لم يسلم أوشك أن يتداعى بنيانها وتتقوض حيطانها . وبقدر ما يكون الجهل يكون الفساد والاضطراب ، حتى إذا تجاوز الجهل حده ، وعدا طوره ، فصل الله سبحانه فصله بمحو الانسان ، وجاء وعده بإبادة هذا الوجود . وإن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويفشو الجهل . وإذا كان ذلك لم يكن لبقاء هذا الكون حكمة ، ولا فى بقائه مغنم للانسانية ، لأن الله سبحانه جعل الانسان خليفة عنه ، فإذا جهل خليفة الله لم يكن لخلافته معنى . ذلك هو مايدل عليه الكتاب إذ يقول « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » . وفى الحق إذا ظن أهلها ذلك لقد جهلوا جهلا لا يصح معه علم فلا يستقيم عليه أمر .

ومن مظاهر هذه الوجهة الكريمة (وجهة العلم الصحيح) ما نجده منبثا فى تضاعيف هذا الدين ، وما أكثره من مثل :

« يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » . ولولا أن يشتط بى القلم لأسهبت القول فى ناحية هذه الجهالة وما يدل عليه اعتقادها من ضلال وإرخاء عنان عند التسليم بها . ولعمرى لقد هلك المتحرف فى معرفته لأن كل عمله أعوج بمقدار ما تحرف فى عقيدته . فالكتاب الكريم يدعو إلى الاتزان فى النظر ووضع الأمور فى نصبها وأوضاعها بلا غلو ولا إسفاف . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى : « يا على أنت كعيسى ابن مريم ، هلك فيك

رجلان : محب غال ، ومبغض قال » . ويقول الله سبحانه : كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . وجاء رجـــل فى شهادة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : هل رأيت الشمس ؟ قال : نعم ، قال على مثلها فاشهد وإلا فدع .

وحدثنى أنت هل تستطيع أن تتصور كيف جمع الله سبحانه الكتاب مع الميزان فى قوله « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » إلالما بين الكتاب والميزان من رحم ماسة وصلة واثقة ، هى ما بينه سبحانه بصريح البيان فى قوله : ليقوم الناس بالقسط ؟ وحسبك بها من صلة لا تهن ، ورابطة لا تنفصم عراها ، فكل من الكتاب والميزان قوام لكل مائل ، قصد لكل جائر ، مرجع فى تحديد الحقائق المعنوية والحسية معا .

ولقد غرس هذا التوجيه الكريم فى النفس السامية العظيمة نفس محمد بن عبد الله أن الحق والحكمة أساس الحياة الصحيحة ، ومعيار النظام الذى يسير بقافلة الوجود إلى حيث السعادة فى أروع صورها ، وفى أروج مظاهرها ، فنسيت فى سبيل ذلك ما فطر عليه الناس من ميل مع الحب فى أقوى صوره وأحد مظاهره ، تزكية للنفس من كل ما تورط فيه هذا الوجود من دنس وإسفاف . « يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله ؟ والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ! ياعباس ياعم محمد ، اعمل لا أغنى عنك من الله شيئا . يافاطمة يابنت محمد اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا » . وجاء رجل إليه يسأله أن يكون شريكه فى الجنة فقال « أعنى بكثرة السجود » ذلك بصيص من وجهة الحق والحكمة فى الاسلام .

وأما وجهة الأدب النفسى ، والسمو الخلقى ، فتلك متجلية سافرة فى كل

ما يكبح من جماح النفس ونزوة الطيش ، وغواية الغرور ، واقتياد الفجور ، يتجلى في مثل قوله « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، « وخلق الإنسان ضعيفا » . « فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين » . « أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » الخ الخ . فهذا وأمثاله لتقف النفس على نقصها فتعرف قدرها ، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه .

وإن هذه الناحية لتتجلى سافرة فيما شرع الله سبحانه من تكليف سوى فيه بين مختلف الطبقات : ملوكهم وسوقتهم ، رؤسائهم ومرءوسيهم ، حتى قال عمر لسعد ابن أبي وقاص : « ياسعد لا يغرنك في الله أن يقال خال رسول الله أو صاحب رسول الله ، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء وإنما يمحو السيء بالحسن ، والناس في دين الله سواء يتفاضلون عنده بالطاعة » . رحمك الله ياعمر ! ما كنت إلا صدى يردد روح الإسلام الذي اختلط بلحمه ودمه وخالط منه الشغاف ! « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

وبعد ، فلعلك أيها القارىء الكريم تستطيع أن تجد في ذلك القبس الكريم ضياء وهدى . ولعلك تستطيع أن تدرس تينك الناحيتين الخطيرتين : (وجهة الحق والحكمة ، ووجهة الأدب والخلق) ، فيما صدرت لك به مقالي من تلك الحكمة العالية . والأدب السامي : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ؛ فإنها من الناحية الأولى المنطق الصائب والقول الفصل ، فالله سبحانه آتى عباده ماشاء من علم ومعرفة ، وقسم فيه الحظوظ كما قسمها في الأرزاق ، وقد قرنهما في كلامه الحكيم . « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ! نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » .

واعترف الملائكة بهذا فيما حكم عنهم بقوله : «قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم» .

ولقد نشأ هذا الوجود منذ نشأ عالة على تعليم الله ، يعشو إلى ضوء ما نصب الله سبحانه له من آيات فى الأنفس وآيات فى الآفاق ، ومن وحى على ألسنة من اصطفى من عباده ، ومن إلهام له فى ضلاله ورشاده . وهو سبحانه خالق آلات العلم وأسبابه من الحواس التى هى طريق الإدراك ، والعقل الذى يرتب الفكر، ويعتبر بالنظر، والكون الذى هو موضع العبر ، والمراح والمغدى لكل معتبر . والكتاب الكريم ناطق بأنه سبحانه مفيض العلم والهداية « قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين »، « ويعلمكم الله، والله بكل شىء عليم » ، « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ، ثم لاتجد لك به علينا وكيلا ، إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا. قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى غلا فيه كثير من الجاهلين فنسبوا إليه من العلم مالم ينسبه إلى نفسه ، أنظر كيف يخاطبه الله سبحانه ويضعه فى حاقه وينزله فى منزله ، لقد أنزل الله عليه الكتاب والحكمة وعلمه مالم يكن يعلم . لقد وجده ضالا فهدى ؛ لقد وجهه أن يضرع إليه ، ليفيض عليه « فتعالى الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علما » . ولما سأله الكفار أن يأتى بغير القرآن مما يتفق مع عقائدهم الزائغة، وأهوائهم الفاسدة، قال الله سبحانه له : « قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى » . ووصفه الله سبحانه بأنه لايدرى صيور أمره ولا الخاتمة من شأنه « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، إن أتبع إلا مايوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين » . وفى الصحيح أن امرأة من

الأنصار قالت لما كفن عثمان بن مظعون : رحمة الله وبركاته عليك أبا السائب ! فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . فسمعها صلى الله عليه وسلم فقال : « أما هو فقد جاءه اليقين ، والله إنى لأرجو له الخير ، والله ماأدرى وأنا رسول الله ماسيفعل الله بى » . وفى الصحيح من حديث الخضر وموسى ، قال الخضر لموسى : إنك لن تستطيع معى صبرا . إنى على علم من علم الله علمنه لاتستطيعه أنت ، وأنت على علم علمكه الله الحديث . وإذا كان الله سبحانه هو الذى علم الإنسان فلقد شاءت حكمته أنه لم يعطه من العلم إلا قليلا فى جنب الحقائق الثابتة والمعارف غير المتناهية : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » . «ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

المجاز والكناية فى القرآن

تحت هذا العنوان كتب فضيلة أستاذنا العلامة الشيخ حامد محيسن عدة بحوث ، وهو — وفقه الله — حريص على التوجيه إلى حرية الرأى والتخلص من قيود الجمود ، ونحن نحمد له ذلك الاتجاه ، ونسأل الله له التوفيق ، حتى نكون فى حدود مارسم الدين ، وحتى لا نتورط فى تكلف ، إن الله لا يحب المتكلفين .

لقد أثار بحث فضيلته فى آية الملك : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوما للشياطين » ، أثار ذلك البحث ضجيجا ، وأحدث صخبا كثيرا ، وأجال بعض الأقلام فى المناقشة والجدل ، وقد رأيت أن يكون لى شرف المساهمة فى بعض تلك الجولات ، وأن أعرض لأهم ما يعنى الناظر فى الآية الكريمة فى نظر العقل ، ونظر الدين ، ونظر البيان العربى ، مرسلا نفسى على سجيتها ، مع توخى غاية الإيجاز خشية الزلل أو الشطط ، من غير استقصاء فى البحث ، تمشيا مع أدب الإسلام فى المقاولة .

١ — لا يظهر وجه التنافى بين استراق الشياطين للسمع ، وكون الله سبحانه متقن الخلق ، محكم الصنع ، فالله سبحانه بديع السموات والأرض ، والله سبحانه خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، وهو سبحانه رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم ؛ كل هذه وسواها مظاهر إتقان الخلق وإحكام الصنع ؛ فهل محاولة استراق السمع تنافى شيئا من ذلك ؟

لو كان الأمر كذلك لما اعترف به فضيلته فى تفسير الآيات الأخرى التى وردت وردت فى هذا المعنى ، كآية الحجر ، وآية الصافات ؛ لكن فضيلته قد اعترف به ،

ولم يحاول تأويله ؛ إذاً فمحاولة استراق السمع متمشية مع الإحكام والدقة ، ولكن الله سبحانه دبر أمر الخلق بمقتضى علمه على غاية الحكمة ونهاية الدقة ؛ وأعطى كل شيء خلقه ، ويسر كلا لما خلقه له ؛ فالملائكة عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، منهم من يدبر الأمر ، ومنهم من يحمل العرش ، ومنهم ومنهم …

والشياطين أشرار مفسدون ، ولهم سلطان فى الإغواء إلا على عباد الله المخلصين. والشيطان هو الذى أقسم بين يدى الله لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين . وهو الذى يقول بين يدى الله سبحانه : « لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا » ، والله سبحانه ما حال دون ذلك ، ولا أوصد الباب فى وجهه ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، ولكنه فسح له مجاله لأنه — كما قلت — يسر كل كائن لما خلق له ؛ فخاطبه بقوله : « اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

وإذاً فالاستراق سبيل من سبل الإغواء التى يبتلى بها الله عباده ، ليضل المزعزع فيؤمن بالكاهن ، ويذعن له ، وليهتدى الثابت فيسلم وجهه إلى الله وحده . وماذا كان لاستراق السمع من أثر فى إتقان الصنع ، وإحكام النسج ؟ وهل كان بالله سبحانه من حاجة إلى حملة العرش ، وأن يرسى الأرض بالجبال ؟ .

ليس كل ما يجول بالذهن أو يتصل بالإدراك يحكم فى نظام الله ، وإلا لكان كثيرا مما جاءت به الأديان من السماء مثارا للشكوك ، وموضعاً للريب . ولكننا نؤمن بكل ما جاء من عند ربنا ، ولا نتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. إن كل تأويل لا ينصره الدليل الحق المبصر ، فهو رد ، وإنما التأويل الصحيح

ما نصبت عليه القرائن وقامت عليه الدلائل. فأما أن شبهة تعرض أو خاطرا يجول فليس منا بسبيل ؛ فإن لله سبحانه مرادا من كلامه يعوزه كثير من الحيطة والحذر.

لقد أنكر بعض العلماء وقوع المجاز فى القرآن ، منهم ابن القيم فى بعض كتبه ، واشترط فى بعض منها شروطاً تجعله عزيزا كل العزة ، وكل ذلك ليسدوا باب الضلال ، ويحولوا دون الاحتيال ؛ ولقد غلا بعض الناس فى أمره ، فكانوا أضر على الدين من أولئك ، وكان منهم الباطنية المارقون ، ولكن قوما هداهم الله للحسنى ، فأولوا ما لم يستطيعوا تحقيق ظاهره ، وفسروا الألفاظ بما تدل عليه القرائن دلالة راشدة ، فكانوا وسطا عدولا .

وإذ لم يكن ذلك الاستراق ولا الرمى بالشهب محالا ، وقد اعترف به أستاذنا كما قلت ، فما الحافز إلى صرف اللفظ عن ظاهره ، وإلباس الثوب غير لابسه ؟ .

٢ — ويقول فضيلة الأستاذ : إن المفسرين بنوا مقالهم على خيال باطل هو أن الله سبحانه يجرى تدبيره على نظام الدواوين وما فيها من أخذ ورد .

ونحن نعلم أن المفسرين بنوا مقالهم على ما ورد به النقل الصحيح من الكتاب والسنة عن الاستراق . وكيف يستطيع المفسرون أن يتقولوا فى شئون الله أو يظنوا به حاجة إلى الشورى ، وهو بكل شىء عليم ؟ معاذ الله ! .

وهل انحصر أمر الاستراق فيما كان عن شورى وأخذ ورد ؟

جاء فى حديث مسلم بسنده إلى ابن عباس ، أن الله سبحانه إذا قضى الأمر فى السماء يقول الذين يلون حمله العرش : ماذا قال ربكم ؟ وهكذا حتى يبلغ الخبر السماء الدنيا فتخطف الجن السمع .

وهذا الحديث ونحوه وإن لم يصل إلى درجة اليقين فإننا بسبيل أن ندفع عنه وصمة الرد والتكذيب ، فإنه من الأحاديث الظنية التى يعمل بها فى الأحكام الشرعية ، فلا أقل من أن يؤخذ بما يؤدى إليه ، وهو الظن الراجح ؛ فكيف إذا

اعتضد بالكتاب الكريم وجاء بيانا وتفسيرا لبعض آيه ؟ وإنه لا ينهض فى مثل هذا أن نقول إن العقل لا يسوغه ؛ فإن كل ما لم يقم الدليل الصحيح على محاليته فانه جائز، والجائز إذا أخبر الصادق بوقوعه فهو مقبول .

٣ — يقول فضيلة الأستاذ : إن سورة « الملك » ترمى إلى غاية واحدة ؛ هى لفت الأنظار إلى بديع آيات الله ، وما فى السموات والأرض من أدلة وبراهين على قدرته ... الخ .

والواقع أنك إذا نظرت فى السورة الكريمة فهى أغراض عدة ومقاصد جمة، فهى كما قال السيد آيات وحجج ؛ وهى أيضا وعيد وتهديد « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها ... » وهى وعد وتحضيض ، « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » . وهى امتنان وحث على الشكر : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون » ، « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » ... وهكذا .

ولعل من باب الاستطراد أن نقول إن هذا الكتاب الكريم ، قد امتاز فى ربط الشىء بالشىء الملابسة ، وذكر المعنى بجوار المعنى لمناسبة ، وإن خرج عن الغرض تمشيا مع تجديد النشاط والاستطراف بتعديد الأغراض ، حتى ربما وقع فى أثناء القصة الواحدة خروج باعتراض أو تذييل « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » ، « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم »

وكل ذلك وأمثاله من البلاغة التى يتفاوت بها النظم ويعذب بها الموقع ، ولا سيما إذا كان فى مثل أسلوب الكتاب الكريم ، فلئن قال قائل : إن السورة الكريمة ترمى إلى غاية واحدة لم يمنع ذلك من مزج تلك الغاية ببعض ما يلابسها أو يتصل بها . وهل وصف النجوم بأنها رجوم للشياطين يبعد كل البعد عن وصفها بأنها زينة للسماء ، ونور فى الأجواء ؟ إنها نور مضىء ، وإنها نار محرقة ؛ إن الموصوف شىء واحد هو النجوم ، وإن الصفات لمتآخذة متجاوبة كما ترى .

وهل هناك ما يمنع أن يكون الرجم بها من آيات الله ، والأدلة على عظيم قدرته وواسع تصرفه ونهاية عزته « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » وهل اتسع المجال لربط إعداد عذاب جهنم للكافرين بما قبله ، وضاق عن ربط الرجم بالنجوم بجعلها زينة مضيئة ؟

(٤) يقول فضيلة الأستاذ : إن مما لا يستسيغه العقل أن يفهم، فاهم أن النجوم التى هى زينة وبرهان على قدرة الله يرمى بها المستمعون إلى السماء ، لأن ذلك مما يخيل السفه ، ومما يجافى الحكمة ويؤذن بالعجز ... الخ ما يدور حول هذا المعنى ، ونحن نرد من جهة العقل والنقل .

أما العقل فإنه لا يفهم السفه فى هذا ، لأنه لا يستطيع أن يقصر تصوره على فهم أنها للزينة خلقت .

لم لا يجوز أن تكون مخلوقة أيضا لغير ذلك ؟ وأى عجز فى أن يستعمل الله بعض مخلوقاته فيما شاء من أمره ؟ ولماذا نصر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبا ، وأهلك عادا بالدبور ، وقد أرسل الرياح لواقح ، وأرسل الرياح مبشرات ، بل وربما كان ذلك من آيات القدرة الإلهية ، وبسطة السلطان كما قلنا . إنه ليس لجوءاً فيكون عجزاً ، إنما هو إلى ربط الأسباب بالمسببات أقرب فالله يهلك بما شاء من شاء ، يهلك بالصواعق . ويفنى بالريح العاتية ، وقد أرسل على أصحاب الفيل حجارة

من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، وقد يرفع القرية إلى السماء ثم يقلبها «والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى » وكل ذلك لحكم يعلمها الله ومن علمه الله . ومن الحق علينا أن تتسع له عقائدنا ، وأن نؤمن به ، كل من عند ربنا .

ولعل هذا الشيطان المفسد يناسبه أن يقتل بهذا الصنف العظيم ، ولاسيما إذا كان منه قريبا . وهذه النجوم كثيرة عدد الحصى لا تفنى ، وذلك من آيات الله .

ثم ما بال هذا القرآن الذى أنزل للهداية والتوجيه الحكيم يصرع الشيطان كما ورد فى بعض الأحاديث الصحيحة ؟ إننا نؤمن بكل ما جاء على الوجه الذى به جاء ، مادام أنه لم يقم على محاليته دليل ملزم .

وأما النقل : فهو ما جاء فى آيات الاستراق ، كما قدمت . فهل من السفه والعجز ما تفيده الآيات الكريمة إفادة واضحة صريحة « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » ، « وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . . . » الخ .

إن فى كلام الشيخ ما يفيد الإيمان بظواهر هــذه الآيات ، وهو ما فسر به المفسرون هذه الآية ، وهذا أقرب ، فإن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ولا سيما إذا كان محققا لما يفيده اللفظ بأصل الوضع .

٥ — قبل أن أختم ما أردته اليوم ، أستطيع أن أعيد التفاهم فى شأن المجاز الذى عول فضيلته عليه . ذلك أنه ليس من السهل كما قلت آنفا أن يصار إلى المجاز ولو لشبهة تعرض ؛ فالأصل كما يعلم السيد أن يحمل اللفظ على حقيقته وأصل معناه لأنه الذى يسبق إلى الذهن عند العالم بالوضع . اللهم إلا إذا وجدت قرينة تمنع من صحة إرادة المعنى الأصلى للكلمة ، فلا محيص من المصير إليه اضطرارا .

وقد بينت أنه ليست هناك قرينة ما نعة من إرادة المعنى الأصلى ، بل هناك ما يدعو إلى القول به .

على أننا إن صح أن نقبل استعارة الرجوم لمعنى الإفحام والإلزام كقولهم : ألقمه حجرا ، فإننا نعتبر أن من اللحن بالحجة والتمويه بحسن السبك أن يقال : إن الشيطان مجاز فى معنى الإنسان الكافر مهما عاند وجحد ، واتخذ من دون الله الند . فإن من جمال الاستعارة وقوة أثرها أن يلاحظ فى الوصف المشترك القوة والدقة التى تصل إلى حد الشهرة ، حتى يسبق المعنى إلى ذهن البليغ كأنه حقيقة ؛ ولهذا أنكروا على بن الأحنف استعمال الجمود فى معنى بخل العين بالدمع للسرور ؛ لأنه اشتهر فى معنى البخل حال الحزن ، ولذا قالوا إن هناك ألفاظا تستعمل بناء على الشهرة فى معان : كالبدر للصبيح لا للجماد مثلا ، والأسد للشجاع لا للمتوحش ، والصفد للجبان ، والذئب للمخادع ، وهكذا .

فليس كل مشاركة فى وصف مسوغا للتشبيه ، فضلا عن الاستعارة التى هى أحق بأن يراعى فيها جهات الامتياز فى الوصف المبرر لنقل اللفظ من المعنى الحقيقى إلى المجازى .

وأعتقد أن لفظ الشيطان يدل على معنى أخص خصائصه الإغواء والإفساد والاحتيال لذلك ، لا الكفر والعناد ؛ فهو إنما يستعار لذلك ، وفى القرآن الكريم « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » ولعله إذا استعير لمؤمن أو مسلم فيه خبث وتمرد ، كان ذلك أقرب من استعارته لكافر مهما عند .

هذا إذا حمل لفظ الكناية فى كلام الشيخ على الكناية اللغوية الصادقة بالمجاز ، وهو الأشبه ببحث الشيخ ، والأليق بكلامه ، ولا سيما بعد أن صرح مرارا بمنع المعنى الحقيقى ؛ والكناية من شأنها ألا تمنع المعنى الحقيقى ، فأما إذا حملت الكناية على المعنى الاصطلاحى الذى هو إطلاق الملزوم وإرادة اللازم ، فإنه على مشاركته المجاز فى أنه يشبه التعقيد المعنوى ، يزداد نبوا من جهة أن اللزوم فيه

بعيد جدا ، إذ لا يلزم من المعنى الحقيقى وهو رجم الشياطين، ذلك المعنى المقصود وهو إقامة الحجة على المعاندين ، ولا هو مقصود فى الكلام ولا يدل عليه أسلوب الشيخ ـ حفظه الله ـ فكيف إذا ضممت إلى ذلك منع جواز المعنى الحقيقى ؟.

هذا مجمل ما ينبغى الآن من المناقشة مع أستاذنا الجليل . ولعل لى عودة للتكملة إذا دعا الداعى . وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنه لا حول ولا قوة إلا به .

دراسات فى القرآن

تردد الحديث عن كليم الله موسى فى خمسة وعشرين سورة من القرآن سردتها جميعاً ، ثم بدأت أذكر مواضع الآيات من تلك السور مفسراً لها .

ونتحدث اليوم عما تفيده الآيات « ٦٠ » فما بعدها من سورة البقرة ، تذكر آية « ٦٠ » من سورة البقرة أن موسى طلب السقيا لقومه ، ومعناه أنهم عطشوا فى الصحراء ولا ماء ، فسأل الله أن يسقيهم ، فأكرمهم الله بأن أخرج لهم الماء من الحجر ، كما أكرمهم من قبل فجعل لهم طريقاً فى البحر يبسا .

قال الله سبحانه لموسى منبها له ولهم على ما وضع من أسرار فى هذه العصا التى أنقذته من سحر فرعون فلقفت ما كانوا يأفكون : «وضربت البحر فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم » قال له اضرب بعصاك الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » . بعدد الاسباط الذى قسمهم موسى قسمة القائد الحكيم . وعلم كل أناس مشربهم بلا بغى ولا اعتداء .

بعد هـــذا تورد الآية « ٦١ » صورة من تمرد القوم فى شأن الطعام بعد أن ذكرت ما قبلها صورة من حفاوة الله بهم فى أمر الشراب ، فهؤلاء القوم قد أنعم الله سبحانه عليهم فى الصحراء المحرقة المجدبة ، فظلل عليهم الغمام وقاية ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاما شهيا ، وغذاء قويا مع ذلك الشراب من الحجر ، فكفروا نعمة الله وقالوا لن نصبر على طعـام واحد ، وسألوه عنتا وشقاء شيئاً مما تنبته الأرض لا ما تنزل السماء ، فالتمسوا لأنفسهم الشـــقاء ، وطلبوا الأدنى بدلا من الأعلى .

فتحداهم الله سبحانه كما يقول ـ الأستاذ محمد عبيد ـ أن ينزلوا إلى محاربة سكان الأرض الموعودة ، ولكنهم امتنعوا جبنا كما هو شأنهم .

وفى آيتى (٦٣ ، ٦٤) أن الله سبحانه أخذ عليهم العهد والميثاق بعد أن رفع فوقهم جبل الطور تخويفا لهم حتى يقبلوا التوراة . قالوا إن نبى الله موسى طلب من قومه لما رجع من مناجاة ربه ، ومعه التوراة ، أن يعملوا بها ، فأبوا إلا أن يروا الله ويكلمهم كما كلم موسى، فأخذتهم الصاعقة كما ذكر فى آية سابقة، ثم بعثهم الله ، ثم عادوا إلى خلافهم، فأمر الله سبحانه جبريل أن ينقل الجبل فيجعله فوق رءوسهم ؛ عند ذلك خافوا وعاهدوا موسى على العمل والطاعة ؛ ثم خالفوا بعد ذلك . ولولا فضل الله عليهم ورحمته لكانوا من الهالكين .

وذكرت آية (١٧١) من سورة الأعراف أن الله سبحانه نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم «خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون» ففى سورة الأعراف بعض تفصيل للرفع كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم وفى سورة البقرة بيان أنهم نقضوا العهد .

وأما آية (٥٦) مما هنا (البقرة) فهى تحدثنا أن جماعة من بنى إسرائيل اعتدوا فى السبت فمسخهم الله قردة ، وتذكر أن يهود الإسلام علموا ذلك ، وأن الله سبحانه جعل تلك العقوبة نكالا وعـــبرة لمن فى زمنهم ومن بعدهم وموعظة للمتقين ، والحادث مفصل بأكثر مما هنا فى سورة الأعراف (١٦٣-١٦٦) ففيها أن ذلك كان بالقرية التى كانت حاضرة البحر قريبة منه وأنهم اعتدوا لأن الله سبحانه ابتلاهم فجعل الحيتان تظهر لهم يوم يسبتون ، ولا تأتيهم يوم لا يسبتون وأن طائفة كانت تنهاهم وأخرى كانت تلوم التى تنهاهم، لأن الله سيهلكهم أو يعذبهم عذابا شديدا

وأن الله أنجى الناهية وعذب الظالمة ، وسكت القرآن عن اللائمة فاختلف الناس فيها ، وأن الله أيضا قال لهم وللمعتدين : « كونوا قردة خاسئين » . هذا ما فى الكتاب الكريم . فأما تعيين القرية بأكثر من أنها قريبة من البحر فهى موضع ابتلاء بالحيتان ، وأما الكلام فى أن الطائفة الناهية هلكت أو نجت فلا ثبوت له ، ومن عجب النظر وفضوله محاولة التأويل فى أمر المسخ بأنه مجاز عن الخسة أو غيرها ، كما ينقل الشيخ رشيد رحمه الله فى التفسير .

والآيات من (٦٧ - ٧١) من سورة البقرة تقص علينا من أنباء بنى إسرائيل ما يصور بعض تنطعهم وإحفائهم فى السؤال ، وهى متصلة بما بعدها (٧٢-٧٣) مترتبة عليهما ، متأخر مدلولها فى الزمن عنهما ، ولكن ذلك مسالك الذكر الحكيم للتشويق حتى يستقر فى النفس ما بعده ، ويقع منها موقع الماء من ذى الغلة .

تذكر أن موسى (ص) ينقل إلى قومه عن الله سبحانه أنه يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، وأن ذلك لغرابته عندهم يجعل موسى عندهم كالمستهزئ بهم ، فلا علاقة فى عقولهم بين قتل نفس يراد معرفة قاتلها ، وبقرة يؤمرون بذبحها ، والاستهزاء من صفات الجاهلين ، فاستعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين .

فطلبوا من موسى أولا أن يعين لهم صفتها ، ما هى ؟ ففهم أن ذلك سؤال عن سنها ، فسأل ربه فأجاب بأنها لا فارض « مسنة » ولا بكر « صغيرة » ولكنها عوان « نصف » بين ذلك . ثم سألوه ثانيا عن لونها فقال : إنها صفراء شديدة الصفرة تسر الناظرين بهذا اللون المحبوب . وطلبوا ثالثا زيادة التمييز فى الصفة أسائمة هى أم عاملة ؟ واعتذروا عن هذا الإسفاف بأن البقر تشابه وأن لهم أملا فى الاهتداء ، فقال لهم : إن الله سبحانه يطلبها غير عاملة فهى ليست ذلولا تقلب الأرض للزراعة . ولا تسقى الأرض المهيأة لها ، ويريدها مسلمة ليس فيها لون يخالف لونها ، فقالوا : الآن جئت بالبيان الحق . فذبحوها وما كادوا يفعلون . ولو

أنهم ذبحوا بقرة لكفتهم أيا كانوا ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، وبهذه القصة سميت السورة الكريمة « سورة البقرة » ذلك فيما أفهم لأنها لم تذكر فى غيرها وفى « ٧٢و٧٣ » أنهم قتلوا نفسهم فاختلفوا فى القاتل وتدافعوا ، كل يدفع عن نفسه ويتهم غيره ولكن الله مبين للحق ، فلذلك قال : اضربوا القتيل ببعض تلك البقرة ، وقوله : « كذلك يحي الله الموتى » صريح فى أن الله أحياه أو كالصريح فيه ، فلا عبرة بتعسف الشيخ رشيد وتعقيده فى آيات الكتاب . والله الموفق للصواب .

موسى الكليم

فى سورة المائدة(١)

قلت إن الله سبحانه قد ذكر موسى الكليم فى خمسة وعشرين موضعاً من الكتاب الكريم ، وتعرضت لما ورد فى السورة التى ذكرت فيها البقرة من نعمة الانجاد من آل فرعون وفرق البحر ، واتجاه قوم موسى ، وإغراق عدوهم ، ومواعدة موسى أربعين ليلة ، وعفو الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ، وطلبهم رؤية الله ، ثم عقابهم والعفو عنهم ، وإحسان الله إليهم بتظليل الغمام فى الصحراء ، وإنزال المن والسلوى من السماء ، وعدم تحقيقهم دخول القرية ، وطلبهم السقيا من موسى ، ثم إخراج الماء لهم من الحجر ، وما تبع ذلك من مظاهر الضجر . واعتدائهم فى السبت ، ثم قصة البقرة ، واختلافهم فى أمرها — وكان الموضع الثانى من المواضع الخمسة والعشرين سورة المائدة .

وفيها خبر يصور قسوة قلوب القوم ، واختلافهم أيضا ، وعقاب الله لهم . وهذا الموضع يقع من الناحية التاريخية بعد نجاتهم من آل فرعون وخروجهم من مصر كما سترى ، وهو مما لم يذكر فى هذه السورة الكريمة فيما نعلم .
والواقع أن سورة المائدة (وهى الرابعة من سور القرآن الكريم) تذكر أحوالا أخرى من تواريخ بنى إسرائيل قبل زمن محمد صلى الله عليه وسلم وفى زمنه . بل

---

(١) الواقع أن فى سورة النساء ذكر الشىء من أحوال كليم الله وقومه فى الآيات (١٥٣ – ١٦٢) لكنها مستطردة – فيها مر سريع ببعض الحوادث ولذلك لم أقصد إليها فى المواضع الخمسة والعشرين . وللقارىء الكريم أن يرجع إليها فى الكتاب الكريم .

الواقع أن كثرة من سور القرآن الكريم لاتخلو من شرح لأحوال هؤلاء الناس تحديا لهم وعظة بتواريخهم وصورهم النفسية العجيبة . وهداية لمن أراد الله هدايته منهم وكذلك هذا الكتاب الكريم . هدى المتقين ، وتسجيل وحجة على المعتدين المعاندين وإنما أحاول دراسة الأحوال التي تتصل بكلام الله وتلابسه ملابسةقريبة وفى سورة المائدة من ذلك الآيات من (٢٠ — ٢٦) .

وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله — إلى قوله فلا تأس على القوم الفاسقين ، وفى هذه الآيات أن موسى صلوات الله عليه قال لقومه بنى إسرائيل أذكروا نعمة الله عليكم فى ثلاثة مواضع فاشكروها وأدوا حقها . واسمعوا وأطيعو لرسوله فيما يدعوكم إليه إسعاداً لكم وإصلاحاً لشئونكم . وإن شق الأمر على نفوسكم وتوهمت فيه إضرار بكم ، وهذه النعم الثلاثة هى :

١ — أنه جعل فيهم أنبياء كثيرين ، والله سبحانه قد جعل فى ذرية إبراهيم النبوة والكتاب وردد هذا المعنى فى كثير من آيات الكتاب . وذلك يقتضى الاستقامة على الطريقة ، فإن النسب الكريم يزينه العمل الكريم ، حفظاً لكرامته ورعاته لحرمته . وإلاذهب جمال الشرف وضاعت ميزته . ولهذا يقول النبى : « آل النبي كل تقى » .

٢ — أنه سبحانه جعلهم ملوكا . فقد حررهم من رق العبودية . وأخرجهم إلى فضاء الحرية وذلك الملك الحق . والصفاء الذى لايقاس به عز . قال زياد : خير الناس ، رجل لايعرفنا ولا نعرفه فى غنيات له . فالملك من لاسلطان عليه لأحد . وذلك سائد فى لغة العرب وقد دلت عليه الآية الكريمة ؛ فإن الله سبحانه يقول : جعلكم ملوكا . ولم يقل جعل فيكم ملوكا ، والعبارة لا تصدق إلا بهذا التفسير .

٣ — أنه سبحانه آتاهم مالم يؤت أحدا من العالمين ، وهذا يشبه أن يكون من عطف العام عن الخاص لإفادة الشمول وعدم الخصوص .

ومعنى ذلك أنه سبحانه آتاهم النبوة ، وآتاهم الملك وأعطاهم فرق البحر وإغراق فرعون ، والتوراة فيها هدى ورحمة ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل المن والسلوى وغير ذلك . وكل هذا لم يعطه الله أحداً من العالمين .

وإذا كان ذلك فمن حقه أن يشكروه ، ويقدروه ، ويتلقوا ما يأمر به بقبول حسن ، وكان نبي الله وكليمه علم من قسوة قلوبهم ما يدعو إلى تخفيفها وترقيقها ولكن ... ولكن أنى هذا وهى كما يقول الله سبحانه كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وكان من حكمة الله سبحانه أن يطلب منهم ذلك الأمر فيخالفوا ، فيعزلهم فى ذلك التيه الذى يبلغ عشرة فراسخ فى مثلها يخبطون فيه ليلهم ونهارهم ، ويعودون من حيث ابتدءوا بقدرة الله حتى ينقرض هذا الجيل الفاسد ، ولا يكون عدوى لذلك العنصر الذى أفسده الاستعباد والاحتلال الفرعونى ، نسأل الله السلامة .

قال موسى لقومه : ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة ، وهى أرض الشام ، والحق أنها غير القرية التى ذكرت فى سورتى البقرة والأعراف — (وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية ، وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية) فإن السياق فى القرآن يشعر بأن دخول القرية كان وهم فى التيه ، وأما هذه الأرض المقدسة فطلب منهم دخولها قبل التيه ، وكان التيه عقوبة لهم على تركها ، والقصة تتلخص فى أن موسى قال لبنى إسرائيل بعد أن عبر بهم البحر ، ومهد بالتذكير بنعم الله عز وجل ، أدخلوا الأرض المطهرة المباركة التى وعد الله إبراهيم أن يجعلها لذريته ، كما ورد فى سفر التكوين أن الله سبحانه قال لابراهيم — لنسلك أعطى هذه الأرض — وحذرهم أن يجبنوا عن القتال ، وإلا رجعوا خاسرين لم يظفروا بهذه الأرض ، فيحقق الله سبحانه الوعد لغيرهم من ذرية إبراهيم ، من المطيعين لأوامره ، ولكن ضعف الاستعباد وسوء تربية الاحتلال علمهم الجبن والخور فهم الذين يحسبون كل

صيحة عليهم ، قالوا إن نبي الله أراد أن يقرهم فى أرض يستقرون فيها بعد خروجهم من مصر، فلما قرب من حدود الشام قال لهم إن الله سبحانه وعدكم هذه الأرض فادخلوها واستعدوا لقتال من يقاتلكم من أهلها ، فأرسلوا اثنى عشر جاسوسا منهم يدرسون أحوال أهلها ، فلما رجعوا قال عشرة منهم لموسى وهو فى ملأ من بنى إسرائيل . إنها أرض تدر لبنا وعسلا ، غير أن القوم أقوياء والمدن حصينة ، وقد رأينا أهلها وهم طوال الهامات فصرنا فى عيونهم كالجراد ، وكذلك كنا فى عيوننا . ذلك بمعناه فى السفر الرابع من التوراة وهو قدر معقول لا ينافى نص القرآن الكريم بل يسايره « قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين » والجبار فى اللغة عظيم الجثة الطويل من قولهم نخلة جبارة ، وناقة جبارة ، وقد ذكرت أوصاف أخرى فى الإسرائيليات الكاذبة ، نقلها بعض المفسرين ، ولا معول عليها ، ولا تتفق مع المنطق ولا التاريخ الطبيعى .

وما كاد بنو إسرائيل يسمعون من الجواسيس وصفهم ، وما بهم من بطش وقوة حتى طاروا شعاعاً ، وتولاهم الرعب والفزع ، وأكل قلوبهم الهلع ، وبكوا وتمنوا لوأنهم ماتوا بمصر ، ثم صاحوا بموسى متظاهرين : « إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . كره القوم الجهاد فى سبيل الله . لأنهم ألفوا ألا يدفعوا عن أنفسهم شراً . واطمأنوا إلى الخوارق التى عودهم موسى وما كانت من الأوضاع الطبيعية ولا السنن الكونية وإنما الحياة عقيدة وجهاد ، وكفاح وجلاد .

فهذه الإسعافات المؤقتة التى يثبت الله بها قلوب عباده لا تستقيم عليها حياة . وإلا كان الإنسان جماداً ، لا حراك به ، ولا تصرف له .

ولما كان كل وسط لا يخلو من ذوى مزايا ممتازة ، فقد كان فى بنى إسرائيل من يتنكر عليهم تمردهم ولا يقرهم على تمردهم ، فانبرى رجلان من الذين يخافون

الله ولا يرهبون بطش سواه ، قد أنعم الله عليهما بالانقياد والطاعة . وقد ذكرت التوراة أنهما يوشع بن نون وكالب بن يفنه وأجمع المفسرون من المسلمين على ذلك . وقالا لقومهما . ادخلوا عليهم باب تلك المدينة ووعداهم ثقة بالله وتوكلا عليه بالنصر والغلبة ، وطلبا منهم أن يتوكلوا على الله كما توكلا ، إن كانوا قد آمنوا كما يقولون فإن المؤمن الصادق من يتوكل على الله ، ولا سيما فى جهاد عدوه ، والدفاع عن حقه « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

ولكن القوم لضعف نفوسهم وخور عزائمهم ، أصروا على جبنهم . ولم يتوكلوا على ربهم « وقالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » يتهكمون بكليم الله قائلين فى محاجته . إن كان ربك هو الذى أمر بإخراجنا من مصر لسكنى هذه الأرض وكتبها لنا ، فاذهب أنت ومن أمرك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ننتظر مايتم بينكم ، عند ذلك أخذ موسى يشكو إلى ربه هذا الذى نزل به من تمرد قومه ، ويتنصل من فسقهم وتمردهم « رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » .

ولقد احتاط صلوات الله عليه غاية الحيطة فلم يكفل إلا هرون معه . لأنه كان مطواعاً لا يخالفه ولأن الله أتاه سؤله فيه يوم قال : «اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى » . فليس من الجائز أن يخرج عن توجيهه . وأما الرجلان فجائز أن ينكلا وقد نكل القوم لأن الكثرة غير القلة ، وأنت فى الجماعة غيرك إذا انخذلت عنك وقد عجل الله سبحانه للقوم جزاء من جنس ما عملوا فحرم عليهم الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون فى أرض مقدارها عشرة فراسخ فى مثلها لا يمكنون من الخروج منها حتى ينقرضوا ويأتى الله بقوم آخرين فيهم صلاحية للبقاء والخلافة على الأرض الطيبة لم يفسد الاستعباد فطرهم . ولم يفت الاحتلال فى أعضادهم « ولقد كتبنا فى الزبور بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . اللهم خلصنا من أوحال الاحتلال . وارفع عنا نير الاستعباد حتى نحسن عبادتك ،

الاسلام دين العمل والكفاح

قال الله سبحانه : « وهو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ولعمر الله لولا أن الضرب فى الأرض للطلب مقتضى فطرة الناس . لأوجبه الدين إيجابا شديدا ، ولكنه هم الناس وشغلهم الشاغل على أن الإسلام قد لفت إليه كثيرا حتى لا يزعم زاعم أن الدين يجافيه أو أن التوكل ينافيه ، وعده من صميم القربات فيه .

روى المنذرى : أن النبى مر عليه رجل فرأى الصحابة من جلده ونشاطه . فقالوا : يا رسول الله . لو كان هذا فى سبيل الله ، فقال : إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان . نعم لفت الإسلام إلى هذا المعنى الحيوى الشريف حين هم قوم أن يسرفوا فى صور العبادة من صلاة وصوم ونسك وزهادة ، فردهم إلى الوسط الخيار وقال : « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » وصور رسوله ذلك للناس عمليا فى صور كثيرة جاء فى بعضها : « إنى لأصوم فأفطر وأصلى وأنام وآكل اللحم وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » وفى ذلك ينشد الإسلام من الناس أن يسايروا فطرهم فإن الانسلاخ منها مستحيل .

أما السعى فى الأرض لطلب الرزق فإن الإسلام يقاوم فيه طائفتين هما من الخطورة بمكان (الأولى) تترك السعى تعبدا وتأثما ، زاعمة أن الدين أن تجلس فى صومعة أو متعبد تذكر الله وتمجده ، وهو دين الخلافة فى الأرض ومسايرة الفطر وتهذيبها ، إنه دين المعاملة والإصلاح والاجتماع والإنتاج . دين يأمر بالمدنية الصالحة

والاتصال بالناس لإقامة الحق ، وإحسان العمل والقول ومزاولة البيع والشراء وتربية الأبناء وإصلاح العشيرة وفتح أبواب الخير وإغلاق باب الشر ، والجهاد فى سبيل نهضة الوطن ، ونشر العلم والتعليم ، والضرب على أيدى المفسدين ، وكل ما يتصل بذلك . وهيهات أن يكون ذلك لقابع فى متعبد ، وفار من كل واجب مؤكد فمن حاول ألا يكون كذلك فقد شاء أن تضيع حكمة الله فى الخلافة إلا أن يكون من البله المعاتيه الذى أفقدهم نقصان الفطرة عن أن يسهموا فى إصلاح هذا المجتمع الصاخب .

لقد مدح شاعر الخليفة المأمون فقال :

أضحى إمام الهدى المأمون منشغلا　　بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فمقته وقال : هل زدت على أن جعلتنى عجوزا فى محراب . هـلا قلت كما قال أبو نواس :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه　　ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

حقا إنه لا رهبانية فى الإسلام إنما هو الجماعة وإصلاحها والأرض وعمارتها والدنيا وما أحل الله فيها من الطيبـات فى غير سرف ولا مخيلة ولا بغى على الناس بغير الحق . والعجيب أن منتحلى هـذا الوصف السقيم ممن ينتسبون إلى التصوف العظيم وهو معنى محوره « إياك نعبد وإياك نستعين » وأساسه العزة والكرامة . وقد كان سيد الأمة بعد رسول الله ﷺ إذا اسقط خطام ناقته أناخها ثم نزل فأخذه وهو خليفة رسول الله فإذا قيل له هلا أمرتنا قال : إن رسول الله أمرنى ألا أسأل أحدا شيئا . ويروى مثل ذلك عن أبى ذر الغفارى وعن أبى هريرة وخيرة الصالحين من هذه الأمة وحسبك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد يوما فإذا رجل متعبد فى مكان لا يبرحه فقال : ما هذا ؟ قالوا : عابد منقطع . قال : فمن ينفق عليه ؟ قالوا : أخوه . قال : أخوه خير منه .

يارسول الله . قولك الحق ومنطقك الفصل ولقد ربيت هذه الأمة خير تربية وأمثلها .

أما الطائفة الثانية ، فهم الذين اتخذوا التسول حرفة والسؤال تجارة يدرجون فى الشوارع . ويزاحمون فى المركبات والسيارات بالمناكب ، ويضايقون الجلوس على المقاهى والمتنزهات ، تعشش فيهم جراثيم الأمراض وتسبح فيهم بواعث القذر والاستفزاز ، قذى للعيون السليمة ، وأذى للنفوس القويمة ، قد ماتت فيهم الآدمية ، وبليت فيهم الكرامة والعزة ، ملعونون أينما ثقفوا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها ، لأنهم كذابون ولعنة الله على الكاذبين ، ومدلسون غاشون ، ومن غش أمة محمد فهو من الخارجين . يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويضنون على الشعب بقواهم وما وهبهم الله من مزية ولعل حكومتنا الموفقة تنجح كما نجحت فى مشروعاتها الأخرى مع هؤلاء فتقضى على فوضى هذا الجيش المفسد منهم ، وتجعل منهم جيشاً عاملا فى الأمة مسهما بنصيب فى تقدمها ورفع شأنها .

وياحبذا لو تعاون الشعب معها فقاطع هؤلاء ولم يشجع واحداً منهم إلا من علم ـ بجوار أو قرابة أونحوها ـ شدة حاجته وعجزه عن السعى فيشجعه إلى حين حتى يجعل الله له مخرجا وبقدر ما يأكل المضطر من الميتة حتى يشعر بوجوب اعتماده على سعيه وهناءة أكله من عمل يده .

وفى صحيح البخارى وغيره قال صلى الله عليه وسلم : ما أكل أحد قط طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده . وإليكم درسا عمليا من دروس الرسول صلوات الله عليه لتروا كيف كان الإسلام .

جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فسأله فقال ﷺ أما فى بيتك شىء قال : بلى وحلس (كساء) نلبس بعضه ونبسط بعضه (وقعب) نشرب فيه

الماء فقال ﷺ أتنى بهما فأتاه بهما فأخذهما من يده وقال : من يشترى هذين ؟ فقال رجل : أنا آخذهما بدرهم فقال ﷺ من يزد على درهم مرتين أو ثلاثا ؟ فقال رجل : أنا آخذهما بدرهمين فأخذ النبي ﷺ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال : إشتر بأحدهما طعاما فابعثه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فأتنى به فأتاه به فشد فيه رسول الله بيده ثم قال : أذهب فاحتطب به ولا أرينك خمسة عشر يوما ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما فقال النبي « هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة »...

أيها الناس هذا هو محمد الذى كان يعالج المشاكل على أحدث الطرق وأقر بها للدين وللدنيا وهذا هو الإسلام .

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ».

تراجم اسلامية

ابن جرير الطبرى

لعل فى ترداد النظر فى تاريخ هذا الإمام العظيم وأمثاله مايحفز نفوسا كريمة أو يرفع هما وخيمة . وإنما الناس من جهة التمثال أكفاء . ولا فضل للإنسان إلا بحياة يعمرها بعلوم يحصلها . أوآثار نافعة يخلدها فيخلد بها ، لهذا يعجبنى دائما أن أطالع القراء الكرام بسير هؤلاء الأئمة الاعلام .

نشأ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير المشهور والتاريخ المعروف ، فى القرن الثالث الهجرى ، وهو عهد نهضة علمية ، وبخاصة فى التأليف والتدوين ، وهى نهضة ترجع إلى عهد المنصور العباسى وتبتدىء به . وكان المنصور العباسى قد شجع العلماء ، وأغرى بالتأليف الأئمة والفقهاء ، وأمره فى موطأ الإمام مالك وغيره مشهور بين الناس ، وناهيك بعصر المأمون الذهبى للغة العربية وآدابها ومعارف الدين والدنيا .

* * *

ولد الطبرى سنة ٢٢٥ ﻫ وتوفى ٣١٠ ﻫ ، فهى خمس وثمانون سنة تقريبا قضاها فى جمع العلم والتصرف فيه . وقد عبدت سبله . وعذبت مناهله . مع ذكاء نادر وحفظ عجيب . وتفرغ وزهادة . وتوفر على العبادة . فطوف بالآفاق يرتاد المعارف ما بين الرى ، وبغداد ، ومصر ، والشام ، والبصرة ، والكوفة .

وقد طال مقامه ببغداد بدءا وعودا . حتى كانت وفاته بها .

وكانت بغداد كعبة القصاد ، وموئل الرواد ، ونجمة العالم والأديب ومجمع كل حسن وطيب ـ وهى التى يقول فيها ابن هانىء :

دخلنا كارهين لها فلما ألفناها خرجنا مكرهينا

بدأ يطلب الحديث بالرى وما جاورها ، فأكثر عن الشيوخ ولا سيما محمد بن

حميد الرازى والمثنى بن إبراهيم الأبلى ، وغيرهما . وحدث عن نفسه فى قصة يذكرها بعض المتصلين به . أنه دخل عليه هو وابنه فقال له فى حديث جرى : كم لهذا سنة ؟ قال تسع سنين . قال لم لم تسمعه منى ؟ قال كرهت صغره وقلة أدبه ، فقال لى : حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين(١) وكتبت الحديث ، وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لى أبى فى النوم أننى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان معى مخلاة مملوءة حجارة وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر إنه إن كبر نصح فى دينه ، وذب عن شريعته . فحرص أبى على معونتى على طلب العلم وأنا حينئذ صبى صغير .

وانتقل من الرى وما جاورها إلى مدينة السلام فأقام بها ، وكتب عن شيوخها فأكثر . ثم صار إلى الكوفة فكتب فيها عن محمد بن العلاء الهمذانى وإسماعيل ابن موسى وغيرهما ، ثم عاد إلى مدينة السلام ، ولزم المقام بها مدة . وتفقه بها وأخذ فى علوم القرآن ، ثم غرب فخرج إلى مصر ، وكتب فى طريقه بأجناد الشام والسواحل والثغور وأكثر منها ، ثم صار إلى الفسطاط سنة ٢٥٣ . وكان بها بقية من أهل العلم فأكثر عنهم الكتبة من علوم مالك والشافعى وابن وهب وغيرهم .

وهكذا ظل ينتقل ويأخذ كل علم من أهله وأئمته حتى انتهى به المطاف إلى مدينة بغداد ، وأفاض على الناس من علمه فى شتى الفنون ، وكتب مؤلفاته ، وما زال بها سراجا منيرا ، وشمسا مشرقة ، حتى قضى سنة ٣١٠ هـ . هذه هى حياته الحافلة بالتماس العلم والنهم فى جمعه من جميع منتجعاته ، والاستنتاج والإنتاج ؛ وإذا فنزلة ابن جرير جديرة بما وصف الخطيب البغدادى إذ يقول :

« وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان

---

(١) من مذهبنا « الحنفى » أن البلوغ شرط فى صحة الإمامة .

قد جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره .

وكان حافظاً لكتاب الله ، عارفاً بالقراءات بصيرا بالمعانى فقيهاً فى أحكام القرآن عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها ناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم في الأحكام وسائل الحلال والحرام . عارفا بأيام الناس وأخبارهم .

ولقد أعجب به العلماء والمؤرخون . وجميع أصحاب الفنون فى فنونهم ، وذكر الرواة عنه كثيرا من العجائب ، فقالوا إنه مكث أربعين سنة يكتب فى كل يوم منها أربعين ورقة . وقالوا إن قوما من تلامذته حصلوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفى وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته ، فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة . وهم يذكرون لذلك نظائر حين يتكلمون عمن أكثروا التصنيف ، كأبى الفرج الجوزى ، وجلال الدين السيوطى . ولعل فى أحوال بعض المعاصرين من أمثال الدكتور طه حسين ، والأستاذ العقاد وغيرهما ما يقرب هذه الروايات ، فقد كان السابقون أفرغ بالا ، وأبعد عن شواغل المدنية . وأقل منا أخذاً فى حظوظ الدنيا ومتعها .

ولعل ميزة للطبرى لم يشارك فيها هى أنه يزاحم رجال الاختصاص فى اختصاصاتهم فلا يتخلف عنهم . بل لقد سبق كثيراً منهم ولاسيما فى تفسيره الوحيد الذي جمع بين مسالك السلف فى الرواية ، والخلف في دقة الفهم والدراية .

فأبو جعفر مفسر بلغ مرتبة الإمامة في التفسير ، وفتن الناس بكتابه الذي انتشر بين البلاد ، وأكب الناس على قراءته ، يسرحون الطرف فى فسيح رياضه ، ويملأون العقول غذاء وكرعا من حياضه ، وهو تفسير خالد يتحدي كل عالم ومفسر حتى اليوم . وقد ذكره الإمام المجتهد أبو حامد الاسفرائنى فقال فى شأنه : « لو سافر أحد إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا » .

ونقل الخطيب بسنده إلى عبيد الله بن أحمد السمسار قال :

« إن أبا جعفر قال لأصحابه : أتنشطون للتفسير ؟ قالوا: كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه ، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة . ثم قال هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ، قالوا كم يكون قدره ؟ فذكر نحواً مما قال فى تفسيره ، ثم قال : إنا لله ، ماتت الهمم .

وهذا إن صح أكبر دلالة على همة ونشاط تضل الأذهان فى إدراكهما ، وقد قالوا إنه أملاه من سنة ٢٨٣ إلى سنة ٢٩٠ .

ولعل لنا نظرة فى تفسيره بعد .

ثم ابن جرير محدث عالم بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها كما وصفه الخطيب ، وقد ذكروا فى تاريخه أنه كتب عن أبى كريب وحده أكثر من مائة ألف حديث ، وهو عارف بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ؛ وقد رأيت ما كتب بمصر من علوم مالك وابن وهب والشافعى .

ولهذا فهو فقيه مستقل ؛ وإمام مجتهد يذكر فى طبقات المجتهدين . وهو لم يقلد إلا فى صباه يوم ابتدأ الفقه بمدينة السلام على مذهب الشافعى ، على أن له أتباعا يقلدونه من العلماء . منهم أبو بكر المعافى المعروف بابن طراز . وأبو جعفر المؤرخ المشهور الذى جمع تاريخ الدين فى كتابه مع تحر فى الرواية وقوة فى الأسلوب .

ثم هو فى علوم العربية إمام جليل ، دلت على ذلك كتابته فى التفسير ، وشهد له به أئمة العربية : كأبى العباس ثعلب الذى يقول فيه إنه من حذاق الكوفيين ، وكان قليل الشهادة لأحد بالحذق .

وسأحيلك على نبذة مما كتب عنه أبو محمد عبد العزيز بن محمد إذ يقول : كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه ، لجمعه من علوم الإسلام ما لم يجتمع لأحد من هذه الأمة ولا ظهر من كتب المصنفين واشتهر من كتب المؤلفين ما ظهر له . كان عازفا عن الدنيا تاركا لها يرفع نفسه عن التماسها .

وكان كالقارىء الذى لا يعرف غير القرآن، وكالمحدث الذى لا يعرف إلا الحديث وكالنحوى الذى لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذى لا يعرف إلا الحساب. وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم وإذا جمعت بين كتبه وغيرها وجدت لكتبه فضلا على غيرها .. إنتهى .

وقبل أن أختم هذه الكلمة ، أشير إلى أنه روى عنه بعض منظومات تدل على ذوق فى الأدب . وبصر فاحص بأساليب العرب ، ومن ذلك قوله :

خلقان لا أرضى طريقهما بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرا وإذا افتقرت فته على الدهر

رحمك الله يابن جرير . وجعل منك فى أمتنا أسوة صالحة كريمة .

أبو القاسم الزمخشري

حدانى أن أكتب فى الزمخشرى «تفسير الكشاف»، فقد بدأت أقرأ فيه بشىء من التروية، وكان يحفزنى إليه علمى بما لصاحبه من فحولة فى البيان، وإمامة فى البصر بتصوير القرآن. فكنت أجد اليه حنينا فى النفس، وطربا فى القلب، حتى استطعت أن أخلص للنظر فيه من بعض تلك الشواغل التى لا تهادن؛ وذلك الفضول الذى لا يكاد يفارق، فإذا الأسلوب المونق، واللفظ الرائق، والعبقرية الخارقة، وأحببت أن أتقدم بتصوير ما أجد للقراء عسى أن أهيج فيهم مشاطرتى هذا الإعجاب؛ والغوص على در ذلك الكتاب؛ ولكننى آثرت أن أبدأ بالتصوير للمؤلف قبل تقديم المؤلف؛ لتصح الرغبة فيما قصدت إليه؛ من صادق الإقبال عليه.

فالزمخشرى محمود بن عمر بن محمد الخوارزمى الزمخشرى الإمام الكبير فى التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان؛ وأحد رجلين قيل فيهما: لولا الأعرجان، لضاعت بلاغة القرآن. وثانيهما يوسف بن أبى بكر السكاكى.

والزمخشري من زمخشر؛ إحدى قرى خوارزم من بلاد العجم. وقد تعجب حين تعلم أن أولئك الأعاجم هم الذين تولوا اللغة العربية؛ وحاطوا الشريعة الإسلامية فرعوها حق رعايتها.

وقد ألهب فى هؤلاء الأعاجق جذوة النشاط شعورهم بالنقص العنصرى فى نظر العرب؛ وحرصهم على أن يكونوا موضع التقدير من الخلفاء والكبراء؛ فوصلوا الليل بالنهار، وجابوا فى العلم الفيافى والقفار، وكان منهم مفاخر الإسلام والمسلمين، من أمثال الإمام أبى حنيفة والبخارى والغزالى، وأمثال ابن المقفع

والصولى والجاحظ وابن العميد والصاحب والخوارزمى ، وأمثال سيبويه وعبد القاهر والسكاكى ، وكثير جدا ممن رفعوا شأن العلم والإسلام .

ونشأ الزمخشرى فى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس ، فهو من أدباء العصر العباسى الرابع ؛ ذلك العصر الذى ظهرت فيه ثمار آداب اللغة ، وكانت قد أزهرت فى العصر العباسى الثالث ، وتسابق الناس فيه إلى العلم والأدب ، وكثرت المؤلفات ، وانتشرت المدارس ، وولدت علوم جديدة ، وظهرت مصنفات عظيمة ، أهمها كتب النحو والصرف والبيان التى كان عليها معول العلماء فى نشر هذه الفنون ونقلها إلى من بعدهم ، وتفانى فى التحصيل رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع ، فأخصبت اللغة العربية ببحوثهم ، ونضر الله البيان والإيمان بهم ؛ كالإمام عبد القاهر الجرجانى واضع البلاغة ومؤسس قواعدها ، بكتابيه العظيمين ، وإمام النحو . توفى سنة ٤٧١ والتبريزى شارح الحماسة والمعلقات وغيرهما ، توفى سنة ٥٠٢ ، والراغب الأصفهانى مصنف غريب القرآن ومؤلف المحاضرات ، توفى سنة ٧٠٢ ؛ وكالحريرى والميدانى وابن الشجرى والإمام الزمخشرى والإمام السكاكى والعكبرى وابن الأثير والصغانى وغيرهم ممن أعلوا منازل العلم والأدب أيما إعلاء بمادونوا ؛ وبمن علموا ، أحسن الله جزاء الجميع .

ذلك هو العصر الذى كان الزمخشرى أحد رجاله وخريجيه ، ونشأ الزمخشرى فيه وهو على غاية الذكاء وتمام الاستعداد ، ومنتهى الاجتهاد ؛ مع دين قويم ؛ وعقل سليم ؛ فكان إماماً يشار إليه ، وعلماً يعشى إلى ضوء هدايته . صنف فجمع من جواهر العلم ودرره ، وهذب من أصول النقد والبيان ؛ وفتح من أكمام الأزهار ما لا يهدى إلى مثله إلا مثله ، وكتب فبذ الكاتبين ، وأعرق فى تصحيح البيان بما أعيا على المعاصرين . وقال شعرا إلا أنه لم يكن فيه من المبرزين ؛ كما هو شأن العلماء الأفذاذ .

وقد عرف بشيء من تاريخه المؤرخ ابن خلكان فقال : « الإمام الكبير فى التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان . كان إمام عصره غير مدافع . تشد إليه الرحال فى فنونه . أخذ الأدب عن أبى منصور ونصر . وصنف التصانيف البديعة ؛ منها الكشاف فى تفسير القرآن العزيز لم يصنف قبله مثله ، والمحاجاة بالمسائل النحوية ، والمفرد والمركب فى العربية ، والفائق فى تفسير الحديث ، وأساس البلاغة فى اللغة ، وربيع الأبرار ، ونصوص الأخبار ، ومتشابه أسامى الرواة ، والنصائح الكبار ، والنصائح الصغار ، وضالة الناشد ، والرائض فى علم الفرائض ، والمفصل فى النحو ، وقد اعتنى بشرحه خلق كثير ؛ والأنموذج فى النحو والمفرد والمؤلف ، ورءوس المسائل فى الفقه . وشرح أبيات سيبويه ، والمستقصى فى أمثال العرب ، وسوائر الأمثال ؛ وديوان التمثيل ، وغير ذلك . وكان قد سافر إلى مكة حرسها الله وجاور بها زمانا فصار يقال له : جار الله لذلك ، وكان هذا الاسم علما عليه » . انتهى المراد من عبارة ابن خلكان .

وفى كلام الزمخشرى فى مقدمة الكشاف ما يدل على أنه كان مرجعا فى حل الغامض ، وموئلا لدراسة آى الكتاب على النهج الذى رسمه ، فهو يقول هنالك : ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفئة العدلية (١) الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا إلى تفسير آية ، فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب ، واستطيروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا إلى مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد ؛ والذى حدانى على الاستعفاء

(١) هم المعتزلة وكانوا يسمون أنفسهم أصحاب العدل لأنهم يقولون إن الله لا يقدر القبيح ولا يخلق الشر .

على علمى أنهم طلبوا ما الإجابة إليه على واجبة ، لأن الخوض فيه كفرض العين (١) ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم ، فضلا عن أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمى المعانى والبيان . . . . » الخ .

فهذه عبارة تبين ما كان للرجل من إحاطة بغرائب العلم ، ولا سيما فى علمى المعانى والبيان ؛ وتقاصر همم الأقران عن مجاراته .

والزمخشرى كان على جانب كبير من توثق العلاقة بينه وبين ربه ؛ ويتجلى لك ذلك فيما كان من مجاورته بالبيت العتيق ، ويبدو لك ذلك فى مسلكه الوعظى الذى سلكه فى مقاماته ، فلم يقبل أن تكون فكاهة أو هزلا كالذى عرف لغيره من المقامات ، فهى مقامات جمعت من نبل المقصد وإيثار الجد وحسن التوجيه مادل على همة عالية ونفس كبيرة .

والزمخشرى وإن كان يقول متواضعاً كما روى عنه : أقسم بالله وآياته ، ومشعر الحج وميقاته ، إن الحريرى حرى بأن تكتب بالتبر مقاماته ... فإننا من الناحية الأدبية نرى أن مقامات الزمخشرى قد فاقت مقامات الحريرى عراقة فى البيان وحسن السبك ، وإيثار جانب المعنى على جانب اللفظ ، لأنه أرسخ قدما وأبعد فى ميدان البلاغة مدى . على أن مقامات الحريرى قد أربت على غيرها لغرائب اللغة ونفائس الأدب .

وقد وجه الزمخشرى إلى ناحية الامتياز فى مقاماته وهو يقدمها إلى القارىء فقال : « وتوصيتك ألا تمكن منها إلا من يوازيك فى صفتك ، أو يدانيك من أولى الفضل والديانة ، وأن تربأ بها عن أولئك الذين يحسبون أنهم يحسنون ولا يحسنون ، لتكون من العمال بقول عيسى عليه السلام : لا تطرحوا الدر تحت

(١) ما : خبر اسم الموصول السابق .

أرجل الخنازير ، فإن العلم بنقلته يكبر بكبرهم ويصغر بصغرهم ... وتكليفك ألا تمر على شيء من تلك الأسجاع وغيرها من أبواب الصنعة إلا متأملا وجه تمكنه وثبات قدمه والاستعداد له قبل مورده ؛ لتعلم أن ما سماه الناس البديع من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع ، لا يملح ولا يبرع حتى يوازى مطبوعه مصنوعه ، وإلا فما قلق فى أماكنه ، ونبا عن مواقعه ، فمنبوذ بالعراء ؛ مرفوض عند الخطباء والشعراء » .

هذا أسلوب جميل فى ذاته ، ومسلك جليل فى توجيهه ، يدل على نفوذ بصر وصحة طبع ، وسمو عبقرية تتأبى على التقاليد .

وذكروا أن الزمخشرى كان مقطوع إحدى الرجلين ، وهذا قد يكون من العوامل فى تصحيح دينه وانقطاعه للعلم وصفاء النفس ، فإن المصيبة إذا نزلت بالنفس البشرية ولا سيما إذا شوهت شيئا من الجمال ، فهى جديرة أن تصرفها عن الدنيا ، وأن تجذبها إلى التماس السعادة فى متع روحية كريمة ، واتجاهات هى أحرى أن تعوض النقص الجسدى . ولعل الجاحظ كان من هذا الصنف الذى ألغى كثيرا من متع الحياة فى سبيل متعة النفس والعقل .. ويذكر فى سبب قطع رجله ما يحدث به عن نفسه قال : « دخلت بغداد فاجتمعت بالفقيه الحنفى الدامغانى فسألنى عن سبب قطع رجلى ، فقلت : « دعاء الوالدة . وذلك أنى كنت فى صباى أمسكت عصفورا وربطته بخيط ، ثم أفلت وجذبته فانقطعت رجله بالخيط ، فغضبت أمى ودعت على بقطع رجلى ، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلى » . وهذه الرواية تدل على ما كان من صحة إيمان الرجل وسلامة اعتقاده .

على أن الزمخشرى ، كالسكاكى كان معتزليا ، وكان متعصبا لمذهب الاعتزال .. وهذا المعنى صرف كثيرا من الناس عن مطالعة تفسيره والانتفاع بدرره وجواهره ..

وفى الحق ما كان ذلك داعيا إلى تلك الصرقة ، ومايزال الحق فى مسائل الخلاف عند الله سبحانه يفصل فيه . على أنه لم يكن هناك خلاف ذو بال لو أنصفوا ، ولكن شهوة الظفر والانتصار وما أحاط بمسائل الكلام من ظروف سياسية وغير سياسية قد وسع الهوة وأبعد الشقة ، وعقد كثيرا من مسائل هذا الدين السمح . ولعمرى لقد اختلف هؤلاء وهؤلاء فى مسائل نهى الإسلام عن الخوض فيها فزل الجميع وتنكبوا عن الجادة .

الزمخشرى معتزلى كما قالوا ، ولكن ذلك لا يمنع أن نقرأ كلامه وننتفع بما فيه ، على أن لهجة الرجل كثيرا ما تكون لهجة حق وسبيل نصح ، لا تخلو من توجيه صالح ، وإصلاح قويم . فاستمع إليه وهو يناقش فى تفسير « ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » ويقول فى آخر المناقشة بعد أن خطأ رأى الخصم من ناحية اللغة .

« المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد بصحته ، وإلا كان بمنزلة الأروى من النعام ، ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد فى مذاهبه بقاء النظم على حسنه ، والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدى سليما من القادح ؛ فإذا لم يتعهد أوضاع اللغة فهو من معاهد النظم البلاغية على مراحل » .

وقد ذهب ابن خلدون مذهبا معتدلا لمن يجمد على مذاهب أولئك الكلاميين من الأشاعرة والماتريدية ، فقال وهو يحدث عن التفاسير :

« ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشرى من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه كان من أهل الاعتزال فى العقائد ، فيأتى بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حين تعرض له فى آى القرآن ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة . وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية محسنا للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فليغتنم مطالعته لغرابته فى فنون اللسان» .

الزمخشرى كما رأيت مصنف غزير المادة ، مبدع فى العلوم اللسانية والشرعية ،

ثم هو إلى ذلك كاتب بذ الأقران ، وسلم من كثير مما تورط فيه المعاصرون من طغيان المحسنات على البلاغة ، كما ترجم عن ذلك فى مقدمة المقامات ، وذلك لأن الرجل كما قلت نفاذ البصيرة سليم الفطنة واسع الذرع من البيان العربى الصحيح ، متأثر بقوة ما يروى ويحفظ . وتستطيع أن تقرأ فى كتب الزمخشرى لترى كيف كان فحولة بيان وقوة بلاغة ، يحفل أسلوبه بغزارة المعنى وقوة التأثير ، مع ما يحمل من طابع البديع وجمال الصنعة ، حتى ليخيل إلى القارئ أنه ينثر كنانة اللغة العربية بين يديه فيأخذ منها ما يحقق الغرض فى وضوح وقوة ، ويخصب الأسلوب به بالجمال والروعة .

ويعجبنى من نثره قوله فى خطبة الأساس وهو يشرح الباعث على وضع الكتاب: « ولما أنزل الله كتابه مختصا من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التى تقطعت عليها أعناق العتاق السبق . وونت عنها خطى الجياد القرح ، كان الموفق من العلماء الأعلام أنصار ملة الإسلام الذابين عن بيضة الحنيفية البيضاء ، المبرهنين على ما كان للعرب العرباء – حين تحدوا به – من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم ، والفزع إلى المقارعة بأسنة أسلهم (١) من كانت مطامح نظره ومطارح فكره الجهات التى توصل إلى تبين مراسم البلغاء ، والعثور على مناظم الفصحاء . والمخايرة بين متداولات ألفاظهم ومتعاورات أقوالهم ، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا وما انثنوا عنه فلم يتقبلوا » الخ .

هذا أسلوب جزل قوى بليغ مع ما يحمل من أثر الصنعة . ولك أن ترجع إلى أدب الزمخشرى وكتاباته فى مختلف كتبه لتظفر بمادة عجيبة وفصح نارة ومعين فياض .

وبعد ، فحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق . ولكن لا بد أن أشير قبل مغادرة البحث إلى أن للزمخشرى شعرا لا يقل رصانة عن نثره . إلا أنه كشعر

(١) خبر كان فى قوله كان الموفق .

العلماء المبرزين لا يظفر بخيال الشعراء ، بل يغلب عليه المعنى العلمى و الحكمة الراشدة ، و لعله إلى النظم أقرب منه إلى معنى الشعر المرموق . ومن أجود شعره قوله يصف المتقى :

إذا العيـــون اجتلته فى بذاذته تعـــلو نواظرها عنه وتقتحمه
مازال يستحقر الدنيــا بهمتـــه حتى ترقت إلى الأخرى بههمه
فذلك أعظم من ذى التاج متـكـئا على النمـــارق محتفا به حشمه

كـانت ولادة الزمخشرى يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ بزمخشر : وتوفى ليلة عرفة سنة ٥٣٨ بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مـكة . تغمده الله بواسع عفوه ورحمته .

تفسير الكشاف للزمخشرى

نستطيع أن نقسم كتب التفسير القديمة قسمين : نقلى وصناعى . و نعنى بالنقلى : الأثرى الذى يعتمد على ماروى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو التابعين لهم بإحسان ، من أمثال ابن عباس و ابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والسدى ، وهؤلاء كانوا يبنون أقوالهم على ماسمع من النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى ما يحيط بالتنزيل من أسباب وزمان ومكان ، وما إلى ذلك مما يلقى ضوءا واضحا على معانى آيات الذكر الحكيم فى أولئك الذين هم أهل اللسان والبيان ، وأحق الناس بأساليب القرآن دراية و بصرا . فالتفسير النقلى أو الأثرى أو السلفى يتخذ من أقوال أولئك الأئمة عمدته وإمامه و برهانه على ماقاله، ولكنه مع ذلك لا يغفل التوجيه إلى الاستعمال فى لسان العرب وما يقصد به ، وما ورد فى أشعارهم ، و بيان القراءات التى هى أساس التفسير .

و تفسير الإمام المحدث أبى جعفر محمد بن جبر الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ أبدع ما رأيناه من بين هذه التفاسير، وأجلها قدرا ، وأدق مسلكا و أعذب منطقا وأهدى إلى صواب ؛ فلعمر الحق لقد شرح الكتاب الكريم شرحا قربه كل القرب من كل نفس ؛ فأبرأ ذمته من عهدة النبيين ؛ وأرضى العقل بما رضى بين خلافات السلف من المفسرين ، وصحح النقل فيما اعتمد عليه من أقوال الصحابة والتابعين وكلام العرب الأولين .

وهو الذى يقول فيه السيوطى : إنه أجل التفاسير وأعظمها ؛ فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال ، و ترجيح بعضها على بعض ؛ والإعراب والاستنباط ؛ فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين . اه .

وقال النووى : أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبرى .

وإليك مثلا من أسلوبه فى التفسير :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » : يقول تعالى ذكره : إن هذا القرآن الذى أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يرشد ويسدد من اهتدى به للتى هى أقوم ، يقول : للسبيل التى هى أقوم من غيرها من السبل ، وذلك دين الله الذى بعث به أنبياءه وهو الإسلام ، يقول جل ثناؤه : فهذا القرآن يهدى عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التى ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به كما حدثنى - قال ابن زيد فى قوله : إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم هو الصواب وهو الحق ، وقرأ : ولم نجعل له عوجا قيما ، يقول مستقيما ، وقوله ويبشر المؤمنين ، يقول ويبشر أيضا من هدايته من اهتدى به للسبيل الأقصد ، الذين يؤمنون بالله ورسوله ، ويعملون فى دنياهم بما أمرهم الله ، وينتهون عما نهاهم عنه ، بأن لهم أجرا من الله على إيمانهم وعملهم الصالحات كبيرا ، يعنى ثوابا عظيما وجزاء جزيلا ، وذلك هو الجنة التى أعدها الله تعالى لمن رضى عمله كما حدثنا عن ابن جريج أن لهم أجرا كبيرا قال : الجنة وكل شىء فى القرآن مثل : أجر كبير ، أجر كريم ، ورزق كريم فهو الجنة ، وأن فى قوله أن لهم أجرا كبيرا نصب لوقوع البشارة عليها ، وأن الثانية معطوفة عليها وهكذا ... فهو يورد الآية ثم يشرحها إجمالا ويبين مأخذه من كلام السلف . وعبارته فى الشرح سلسة عذبة مطبوعة بطابع الفطرة الصادقة كأنما يترجم القرآن لكل ناشد وطالب . وفى نهجه هذا الواحدى وابن كثير وغيرهما مع اختلاف يتبع الزمن والتجريد ومبلغ الثقافة . وما نظن أحدا بلغ مبلغه ولا أتى مأتاه دقة ومجهودا وسعة ذرع . ولعلنا نعرض لهذا البحث فى حديث آخر .

وأما التفسير الصناعى فهو الذى يعول على الحرية فى الرأى والأخذ بالقياس ،

معتمدا على ماعرف من أسلوب العرب فى مخاطبتها ومسلكها فى ألفاظها وجملها ، وسنتها فى حقيقتها ومجازها ، غير متوقف على رواية أو نقل ، مالم يصادم مسلكه فى ذلك مأثورا عن النبى صلوات الله عليه أو أحد أصحابه من طريق صحيح ، ولاسيما ما احتمل وجوها من الشرح ولم يجد مرجحا من العقل ، فإنه يحمل تلك الوجوه ويرجح ما ذهب إليه صحابى أو تابعى ، وفى الكتاب الكريم كثير جدا مما يحتمل وجوها كثيرة ، وفيه المحكم والمتشابه ، وفى ذلك التشابه وجوه من الرأى ؛ أقوال فى تصوير مفهومه ومعناه ، وأقوال فيما يصدق عليه أنه متشابه من آى الكتاب الكريم .

وليس هذا مجال التفصيل ، ولكننا بصدد طريقة المفسرين بالصناعة ، وبيان أنهم يعولون فى فهم الكتاب على العقل ، بعد أن يكون المعنى مطابقا لما عهد من أساليب العرب فى التخاطب ، وبعد ألا يكون مصادما لنقل صحيح ولا خارجا على قاعدة دينية ومبدأ متعارف فى الإسلام .

وكما أن تفسير الطبرى هو العمدة فى المأثور فإن تفسير الزمخشرى هو العمدة فى باب الصناعة ، والمفتاح لما بعده من التفاسير الواسعة على علوم البلاغة ، فتق أكمام تلك الأزهار ، وفسح المجال للنظار ، وسهل السبل ، وعبد المشارع لاستدرار خصوبة الكتاب الكريم ، والاتجاه به صوب الإعجاز العظيم ، فهو خير من يعبر عن سمو الأسلوب وعبقريته فى القرآن ، وكيف أنه ساير العرب فى متعارف خطابها ، ولكنه أوفى على الغاية من بلاغتها ، وفرع السماك فى رعاية دقائقها ، وحكمة وضع كل كلمة من جاراتها ، مما جعل أعناقهم بفصاحته ساجدين ، وبكتهم فانخذلوا راكضين ، مما يشرح حق الشرح هذا الإعجاز الصارخ « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـــذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

رحم الله أبا القاسم ! لقد غل أعناق المفسرين ووجههم وجهة فتحت أعينهم على نواحى إعجاز الكتاب ، فصار تحقيقـــا واستدلالا ، بعد أن كان تسليما

وتقليدا . على أن سنة التدرج كانت تقضى أن تتزايد تلك النواحى بعد ما عبدت سبلها ، ولكن التجديد فيها لم يكن بالشيء ذى الخطر .

على أن أسلوب البيان من بعده لم يصل إلى مدى شأوه ولا قارب ؛ فلا الفخر الرازى ولا البيضاوى ولا أبو السعود ولا غيرهم ، ممن سلكوا مسلك التعليل بلغوا مبلغ — جار الله — فى البيان العربى ، الذى ينفذ إلى النفوس نفوذ الشمس فى منافذ الكوى ، ولا حاول أن يصل إلى ذلك المدى .

ولقد بلغ من مجهوده العظيم فى كتابه أن وضع تلك القواعد المحكمة فى علوم البلاغة ، وأعلى منارها للسالكين ، حتى كان له قصب السبق بعد الإمام عبدالقاهر فى ذلك المضمار . كان الزمخشرى فيما نقله أول من سلك بالقرآن فى هذه المسالك ، فذلل عصيها ، واستقاد أبيها ، ولم يكن ذلك فحسب ، بل لقد حقق به كثيرا من أصول النحو فى أسلوبه العذب الحلو ، ومن مفردات اللغة ينحو بها منحى فلسفة فقه اللغة وأصول الاشتقاق ، ورد بعض الكلمات الى أصول وجذور تتفرع منها ، فالصلاة : ما أصلها ؟ وكيف تكون فى تصرفها مما ترجع به إلى أصل واحد ؟ والإنفاق ما فعله ؟ وكيف تقلب فى معان تغترف من قليب واحد ؟ والريب ما معناه وكيف اتجاهه ؟ والرب ماأول استعماله ، وكيف وصل إلى ماهو معهود فيه ؟ والعبادة ما نشأتها ؟ وكيف صارت إلى ما صارت إليه ؟ وهكذا ... على أنه قد جعل الكتاب الكريم مادة لمسائل التوحيد والفقه والتهذيب والسلوك . وهذا الكتاب العظيم محك العلوم ، ومعترك الفهوم ، ومظهر الثقافة فى علوم اللغة والدين . وبقدر اتساع المادة فى تلك النواحى يكون التبريز فيه . ولقد قام الدليل من بحوث الرجل على أنه إمام موفق ، وباحث محقق ، ومبين ذو منطق وذو دين معرق . وماأحوج دارس الكتاب الكريم إلى كل ناحية من تلك النواحى ، وإلى عون ومدد من الحكيم الخبير . ذلك سر تألق نجم الكتاب بين كتب التفسير ، واحتفاظه بمنزلته العليا ، مهما تعددت الكتب فيه ، فلوأن الأمر لم يكن إلا كما قيل:

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة   بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا   بكاها فقلت الفضل للمتقـــدم

لكان ذلك فضلا لأبى القاسم جللا ؛ ولكن الأمر فوق ذلك بكثير ؛ فليس فضل الزمخشرى بتقدمه فحسب ، ولكنها الفيوضات والثروة التى لم يزاحم فى مجموعها ، وهى الروح المشرقة الصافية أضفت عليه ذلك الطابع الذى يعد به نسيج وحده . فى مقال آخر سنشرح بعض نواحيه ، فى بحوثه ؛ وكيف سلك بها فى تلك النواحى ذات الشأن الخطير . وبالله التوفيق ومنه المعونة .

على بن أبى طالب

لو أن لى نبعا من ينبوع بلاغتك ، أو قبسا من نور هدايتك ، أو رشفا من ديم مزاياك . أو مرقى إلى مستوى علياك ، لملكت تصويرك للقراء الكرام ؛ وإنما يحسن التصوير ولا سيما لمثلك بليغ منطيق ؛ وإنما يقدم حكيما عليما مثلك حكيم عالم، ولكننى محب معجب ، أراد أن يوفى بعض الحق لإمام من أئمة الإسلام ، هو فى الحق بجمع لعدة إمامات . وشمس سطعت على الكائنات ، فبحق أقول : إنه عالم ربانى أوتى من ظاهر العلم وباطنه ما استعصى على غيره بعد النبيين ، ومتكلم حكيم تطرق إلى أبواب لا يحسنها سواه من الناطقين فى عذوبة خلابة ، وأسلوب بديع.

أيها الإمام المظلوم : مثلك من غبن حقه فى هذه الدنيا فلم تصف له ، ومثلك من جمد على الحق غير مبال أن ينفض من حوله ، ومثلك من عرف قيمة هذه الحياة فشجع ولم يبال بالموت ! يا إمام الأتقياء ومن أوتى الحكمة ، فكان أخطب خطباء هذه الأمة بعد السيد الرسول صلوات الله عليه . هل درى الناس بم نلت هذه المزايا؟ وكيف اكتسبت تلك المواهب والعطايا ؟ أحاولت أن تكون عليا فكنته ؟ أم ذلك محض فضل من الله نلته ؟ وما من شك فى أن الكل من الله ، ولكنه حين يريد يؤتى الأسباب ، وييسر الطلاب .

أيها القارىء الكريم : هذا هو على بن أبى طالب بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره ، الذى حاول معاوية بن أبى سفيان أن يفتخر عليه فقال لغلامه اكتب إليه :

محمد النبى أخى وصهرى   وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسى ويضحى   يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى   منوط لحمها بدمى ولحمى

وسبطا أحمد إبناى منها فأيكم له سهم كسهمى
سبقتكمو إلى الإسلام طرا غلاما ما بلغت أوان حلمى

ولد والرسول صلى الله عليه وسلم رجل يرشحه الله سبحانه للنبوة فى الثانية والثلاثين من عمره، ونشأ فى بيت محمد ابن عبد الله لفقر أبى طالب إذ ذاك، وما ظنك بناشىء فى بيئة محمد، تربيته على العلم والأدب والحكمة والكمال والجد والرجولة. لهذا كرم الله وجهه، فما سجد لوثن قط. وما عرف طريقا لم يسلكه الرسول قط، لهذا أحبه وآثره وآخاه، فقال: أنت منى بمنزلة هرون من موسى، غير أنه لا نبى بعدى، وهذا حق ـ وأبيك ـ فهى أخوة نسب، وأخوة صداقة، وأخوة اتفاق فى المزايا والصفات، إلا ما خص الله به عبده محمدا، وهو ذو الفضل العظيم، لقد أفاد على بهذه الصلة الخاصة الكريمة ما لم يجتمع لسواه، وهو من أبوين طيبين من عنصر بنى هاشم وهم صفوة الله من عباده، أبوه أبو طالب المعروف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم جد هذا البيت الكريم. فلا غرو إذا أفاد من ذلك القران وتلك الصحبة.

لقد أحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان إذا غضب لم يخاطبه أحد سواه، ولقد بذل له من النصح والإخلاص فى التعليم والتربية ما صار به عالما ربانياً، لا يتسامى إلى منزلته غيره، أخرج ابن سعد عن على أنه سئل بم كنت أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا؟ فقال: «إنى كنت إذا سألته أنبأنى، وإذا سكت ابتدأنى»، لقد أثمر ذلك الحب الخالص بين على وبين ابن عمه، ذلك العلم القلبى النافع، لا العلم اللسانى الضار، فكان على يؤثر غيره بالدنيا على نفسه، ويطعم الطعام على حبه، مسكينا ويتيما وأسيرا حتى قيل: إنه طوى ثلاثة أيام، وفى الثالث جاءه رزق فأتاه ضيف وهو على مائدة الإفطار مع زوجه وابنيه الحسن والحسين، فرفع الطعام من فوق المائدة وآثر به السائل، ولم يطعموا

ليلتهم على ما بهم من مسغبة ومجاعة ، فضرب المثل الكريم لأهل الإيثار ، وعلم الناس كيف يروضون النفوس ويملكونها ، ومن ملك نفسه وشهوته فهيهات أن يذل أو يسفل يوما . كان علي يصوم حتى يقال لا يفطر ، ويقوم حتى يقال لا ينام، يضرع إلى ربه ويبكي من ذنبه ، ويحاسب نفسه على كل ما يصدر منه ، ولهذا كانت نفسه مرآة صافية ، وواضحة خالصة لا يغش ولا يكذب ولا يظلم ، صريحا لا يعرف المواربة وواضحا لا يقبل المخادعة ، وقويماً لا يرضى المداورة . إذا سمع خطة لا يؤمن بها قال : لا بملء فيه ، ويدور مع الحق أنى كان ، ومع من كان ، لا يطلب الخلافة لأنها ملك ودنيا يصيبها ، ولكن ليضع الحق في نصابه ، خليا من كل خطر نفسي ، ومأرب دنيء . والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا ما أخذ الله على العلماء ألا يقاربوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عطفة عنز ، بل اندمجت على مكنون علم لو بحت لكم به لاضطربتم اضطراب الأرشية فى الطوى البعيدة ، لقد أفاد من تلك الصلة الكريمة مع ذلك الاستعداد الخصيب ، فكان جريئا فى الحق ولو على نفسه ، أو من هو فى احتياج ملح إلى نصره ، والاعتزاز به ، فبشر قاتل خصمه ، والمؤلب عليه وتبرأ منه لأن ذلك الخصم من خيرة أصحاب محمد ، ومن كانوا موضع تقديره . اغتال عمرو بن جرموز المجاشعي الزبير بن العوام وهو نائم ، وأقبل برأسه على علي بن أبي طالب فما كان من علي إلا أن قال : أبشر بالنار . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بشروا قاتل الزبير بالنار » . فخرج عمرو وهو يقول :

أتيت عليـــاً برأس الزبير   وكنت أحسبها زلفـــة
فبشر بالنار قبـــل العيان   فبئست بشـــارة ذى التحفة

ثم أتى بسيفه فنظر إليه مليا وقال : رحمه الله الزبير لطالما فرج به الكرب .

عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . رحمك الله يا على لقد كنت موئلا للشريعة الإسلامية ، تأرز إليك كما يأرز الضب إلى جحره ، ولقد كنت مصدرا أمينا من مصادر التشريع ، اتخذك الشيخان أبو بكر وعمر مستشارا لهما ، لا يفصلان فى معضلة إلا بعد فصلك ، ولا تختلف واحدة منها عليك فى رأى إلا رجع إلى قولك ؛ حتى ضرب الناس المثل بك فى معضلات الأمور ومشكلاتها فقالوا : قضية ولا أبا حسن لها — وكان ذلك مصداق ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم «أنا مدينة العلم وعلى بابها» (١) .

ولقد كنت تقول فصلا وتحكم عدلا ، حتى قل أن يترك لك قول الحق صديقا ، ولو كان ابن عباس حبر هذه الأمة ، وابن عمك المخلص الأمين إن صح ما يقول المؤرخون .

وقد أفاد من ذلك خصمك معاويـــة ، ورزأك بتسامحه ولينه فى خلصائك ونصحائك ، حتى فى أخيك عقيل الذى طلب منك فقلت : أصبر حتى يخرج عطاؤك مع المسلمين ، فلما ألح بك ، قلت لبعض القوم : خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق ، فليدق الأقفال وليأخذ ما فى الحوانيت ، فقال لك : تريد أن تتخذنى سارقا ؟ فقلت له : كما أردت أن تتخذنى سارقا آخذ أموال المسلمين ، فأعطيكها دونهم ، ولما ذهب إلى معاوية ، أعطاه مائة ألف ثم قال له : اصعد على المنبر فاذكر ما أولاك به على وما أوليتك ، ولكن الفتى الهاشمى المطلبى عقيلا لم يبع كرامته من معاوية ، ولم يقبل خطة الضيم فى أخيه ؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنى أخبركم أنى أردت عليا على دينه فاختار دينه وأردت معاوية على دينه فاختارنى على دينه . ولله أنتم يا بنى هاشم .

---

(١) اختلف المحدثون فى الحديث ، فمن قائل بوضعه كابن الجوزى ، وقائل بصحته كالحاكم ، والأقرب أنه حسن .

إن على بن أبى طالب لو قبل أن يستبقى معاوية على إمرة الشام ، ويقضى على بعض أمره ، لكان ذلك جديرا أن يخفف ضائقة العداء القائم ، وربما غير ذلك وجه السياسة ووجه الدقة وجهة على ، ولكن رفض ذلك كل الرفض من جميع الساسة والعظماء الذين أخلصوا له ، لأنه لا يؤمن إلا بوحى ضميره ، ولأنه على بينة من ربه ، فلم يرض أن يقره ولا أحدا من عمال عثمان حتى يستتب الأمر ؛ وما ظنك بالاستهداف لخصومة الرؤساء ، ولكنه الذى لا يبالى ، والذى يقول حين يناقش : « ما شككت فى الحق منذ أريته من وقعه بماء لم يظمأ » .

وقد اتصل بهذا التمسك العجيب والتماسك الطليب ، ورع وزهادة ونبل ومجادة ، وتعفف أعجب العدو والصديق ؛ وكذلك من رأى الحق رأى العين ، وكان مع الله ولله . قال المؤرخون : إنه نهى أصحابه يوما عن انتهاب الأموال بعد أن أثخنوا فى أعدائهم الجراح ؛ فجعلوا يمرون بالذهب والفضة ؛ فلا يعرض له أحد إلا السلاح الذى قاتلوا به ؛ والدواب التى حاربوا عليها ، فندبوا من يناقشه لعله يرحم أطماعهم ويبل ريقهم فقال : ياأمير المؤمنين ؛ كيف حل لنا قتالهم ؛ ولم يحل لنا سبيهم وأموالهم ؟ ويجيب على : « ليس على الموحدين سبى ؛ ولا يغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه ؛ فدعوا ما لا تعرفون والزموا ما تؤمرون » رحمك الله يا باب العلم والأمانة ؛ إنى أعلم أن أحكام الخارجين من المسلمين ومعاملتهم ومافى ذلك من غوامض ، أنه مصدره ومرجعه فى الفقه الإسلامى بما شرعت للناس من أحكام لم تعرف من قبلك .

فأما شجاعة على واستبساله فقد تواتر حتى دخل فى حد الأوليات ؛ وأول موقف عجيب له كان ليلة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين مكرت قريش بالنبى صلى الله عليه وسلم ليقتلوه أو يخرجوه أو يثبتوه ؛ وجاءوا يتربصون خروجه لصلاة الفجر ؛ وأقام على فى مكانه ؛ يستهدف لخطرهم ، ويفدى النبى صلى الله عليه

وسلم بنفسه من مكرهم . وكان نوماً هادئاً جميلا لاأرق فيه ولا تفكير ، لأنه نوم الذى يصف نفسه (ما أبالى أسقطت على الموت أم سقط الموت على ، والله لابن أبى طالب آنس بالموت من الصبى بثدى أمه ، ويخرج على إلى الصلاة فلا يجدون سواه . .)

ولقد بارز فى كل غزوة بما تنبئك كتب السير بعجائبه ، وخوارقه التى لولا ما يصح بالرواية منها لدخل فى حد الخرافات .

وهو إلى ذلك مهذب مؤدب ، متواضع ينزل عن بعض صفاته لخيرة أحبابه ، ويقوم على ذلك بحجته . أخرج البزاز فى مسنده عن على أنه قال : أخبرونى من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت : قال أما إنى ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه ، ولكن من أشجع الناس ؟ قالوا : لا نعلم فمن ؟ قال أبو بكر : إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً ، فقلنا : من يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يهوى إليه أحد ؟ فوالله مادنا منا أحد إلا أبو بكر شاهرا بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لايهوى إليه أحد إلا أهوى إليه . فهذا أشجع الناس . رحمك الله يا على لقد فتن الناس بمواهبك لما كان يظهر من عبقريتك ، فعلمك كهيئة المكنون وشجاعتك تحار فيها الظنون ، وفصاحتك لم يتطلع إليها المتطلعون ، وزهدك أعيا به الراهبون ، وقد كان لذ لخصمك معاوية أن يسمع من أصحابك عنك ، وهو من أعلم الناس بك ، ويلح فى الطلب وما أبدع وأوجز ما وصفك به عدى بن حاتم فى كلمته الطويلة التى يقول فيها عنك : (يقول فصلا ويحكم عدلا ، تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير الدمعة طويل الفكرة ، يحاسب نفسه إذ خلا ويحاسب نفسه على ما مضى ؛ يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن العيش ماخشن ، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، يعظم أهل الدين ، ويتحبب إلى

المساكين ، لا يخاف القوى ظلمه ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأقسم لقد رأيته ليلة وقد مثل فى محرابه ، وأرخى الليل سدوله ، وهو يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى الآن أسمعه وهو يقول : يا دنيا غرى غيرى إلى تعرضت ؟ أم إلى تشوفت ؟ هيهات غرى غيرى ! طالقى يادنيا ، طالق ثلاثاً لا رجعة بعدها) وقد كان معاوية يبكى حين يسمع وصف على ويترحم عليه .

بلاغة الامام

قال الأستاذ الأديب محمد المرصفى شارح نهج البلاغة ، وهو يتحدث عن اللغة العربية فى مقدمة شرحه : (وبين هذه وتلك منزلة هى هليا منازل الكلام فيما نعلم ، وأشرفها مكانا وأجلها خطراً ، أقام فيها صدر الإسلام وشطرا من خلافة بنى أمية ، جمعوا فيها بين جمال الحضارة الجديدة وجلال البداوة القديمة ، وبشاشة القرآن الكريم . بهذه الخصال الثلاث امتاز الخلفاء الراشدون ومن تأثرهم ، كزياد والحجاج وقطرى بن الفجاءة . وقد كان المجلى فى هذه الحلبة على صلوات الله عليه . وما أحسبنى أحتاج فى إثبات هذا إلى دليل أكثر من نهج البلاغة ، ذلك الكتاب الذى أقامه الله حجة واضحة على أن عليا قد كان أحسن مثال حى لنور القرآن وحكمته ، وعلمه وهدايته ، وإعجازه وفصاحته .

إجتمع لعلى فى هذا الكتاب ما لم يجتمع لكبار الحكماء وأفذاذ الفلاسفة ونابغى الربانيين : من آيات الحكمة السامية ، وقواعد السياسة المستقيمة ومن كل موعظة باهرة وحجة بالغة تشهد له بالفضل وحسن الأثر .

خاض على فى هذا الكتاب بلجة العلم والسياسة والدين ، فكان فى كل هذه المسائل نابغة مبرزا . ولئن سألت عن مكان كتابه من الأدب بعد أن عرفت مكانه من العلم ، فليس فى وسع الكاتب المترسل ، والخطيب المصقع ، والشاعر المفلق أن يبلغ الغاية من وصفه ، أو النهاية من تقريظه .

وحسبنا أن نقول : إنه الملتقى الفذ الذى التقى فيه جمال الحضارة وجزالة البداوة ، والمنزل المفرد الذى اختارته الحقيقة لنفسها منزلا تطمئن فيه ، وتأوى إليه بعد أن زلت بها المنازل فى كل لغة) وسأحاول أن أحلل بعض عوامل هذه العبقرية العلوية فى بعض نواحيها بما يشوق إلى مطالبها ، حتى لا تهمل تلك الكنوز الثمينة التى عرفها رواد الأدب الرفيع وطلاب الأسلوب السامى .

ولا غرو ؛ فقد كان على فى الصميم من هاشم من ملكوا زمام الفصاحة فى العرب ، واستبدوا بمزايا الأدب .

وقد نشأ على فى بيت النبوة حيث تتلى آيات الله والحكمة ، فيحظى بالنصيب الأوفى من فيوضات الإسلام ، التى هى المادة الخصيبة لكل أديب ، ثم سعد بعد ذلك بغصن النبوة فاطمة الزهراء تزيده أدبا إلى أدبه ، وتمده ببعض ما أخذت عن أبيها من دونه ، وقد حفظ على القرآن كله ، وقل أن يجتمع ذلك بغيره ، فوقف على أسراره ، واختلط به لحمه ودمه . والقارىء يرى ذلك فى نهج البلاغة ويلمس فيه مقدار استفادة على من بيانه وحكمته . وناهيك بالقرآن مؤدبا ومهذبا يستنطق البكىء الأبكم فيفتق لسانه بالبيان الساحر والفصاحة العالية ، فكيف إذا كان مثل على فى خصوبته وعبقريته ، واستعداده ممن صفت نفوسهم وأعرضوا عن الدنيا وأخلصوا للدين ، فجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم على ألسنتهم متدفقة كالمحيطات ، تجرى بالسلس العذب من الكلمات ؟.

وهل كان الحسن البصرى فى زواجر وعظه ، وبالغ منطقه إلا أثراً من على قطرة من محيط أدبه ، ففتن الناس بعبارته وخلب ألبابهم بجمله ، فكيف يكون

الأستاذ العليم والإمام الحكيم على بن أبى طالب ؟

لقد كان الإمام على فى خطبه المتدفقة يمثل بحراً خضما من العلماء الربانيين، وأسلوباً جديداً لم يكن إلا لسيد المرسلين ، وطرق بحوثاً من التوحيد لم تكن تخضع فى الخطابة إلا لمثله ، فهى فلسفة سامية لم يعرفها الناس قبله ، فدانت لبيانه وسلست فى منطقه وأدبه .

وخاض فى أسرار الكون وطبائع الناس وتشريح النفوس، وبيان خصائصها وأصنافها ، وعرض لمداخل الشيطان ومخارجه وفتن الدنيا وآفاتها ، وتكلم فى الموت وأحواله ، وفى بدء الخلق ووصف الأرض ، وفى شأن السماء وما يعرج فيها من أملاك وما يحف بها من أفلاك ، كما عرض لملك الموت ووصفه وأطال فى وصفه .

وخطب على فى السياسة وفى شئون البيعة والعهد والوفاء واختيار الأحق ، وما أحاط بذلك من ظروف وصروف كتحكيم صفين ، وما تبعه من آثار سيئة وتفريق فى الكلمة .

ولم يفته أن ينوه فى خطبه بأنصار الحق وأعوان الخير ، والدعوة إلى الجهاد ، وفيها محاجة للخوارج ونصح لهم ولأمثالهم باتباع الحق ، وغير ذلك مما يكفى فيه ضرب المثل ولفت النظر .

غير أن ناحية عجيبة غريبة امتاز بها الإمام ، هى مما اختص به الصفوة من الأنبياء ، ومن على شاكلتهم كانت تظهر فى بعض تجلياته ، وأشار إليها فى بعض مقاماته ولم يسلك فيها سواه إلا أن يكون رسول الله صلوات الله عليه .

فقد ذكر كثيراً من مستقبل الأمة ، وأورد ما يكون لبعض أحزابها كالخوارج وغيرهم ، ومن ذلك وصفه لصاحب الزنج وذكر الكثير من أحواله ، وذلك من غير شك لون من الكرامات ، وقد قال له بعض أصحابه إذ ذاك : لقد

أوتيت يا أمير المؤمنين علم الغيب . فضحك وقال للرجل وكان كلبيا :

« يا أخا كلب ، ليس هو بعلم غيب ، وإنما هو تعلم من ذى علم ، إنما علم الغيب علم الساعة وما عند الله بقوله « إن الله عنده علم الساعة ... الآية » فعلم الله سبحانه وتعالى ما فى الأرحام من ذكر أو أنثى ، وقبيح أو جميل وسخى أو بخيل وشقى أو سعيد، ومن يكون فى النار حطبا ، أو فى الجنان للنبيين مرافقا ، فهذا علم الغيب الذى لا يعلمه أحد إلا الله ، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه ، ودعا لى بأن يعيه صدرى و تضم عليه جوانحى » .

هذا إلى أنه طرق نواحى من القول ، كانت من خواص الشعر إذ ذاك ، ولكنه ضمنها خطبه ، فوصف الطب وعرض للخفاش وما فيه من عجائب ، والطاووس وما يحويه من أسرار ، وما فى الإنسان من عجائب الخلق وآيات المبدع الحق ، وأحيلك فى ذلك كله على نهج البلاغة ، ولكنى أتعجل لك جملا من قوله فى الخفاش وهو يذكر بالله سبحانه « من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش ، التى يقبضها الضياء الباسط لكل شىء ويبسطها الظلام القابض لكل حى ، وكيف عشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدى به فى مذاهبها ؟ وتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها ، ردعها تلألؤ ضيائها عن المضى فى سبحات إشراقها ، وأكنها من مكامنها عن الذهاب فى بلج ائتلاقها ، فهى مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها ، وجاعلة الليل سراجا تستدل به فى التماس أرزاقها ، فسبحان من جعل لها الليل نهاراً ومعاشا والنهار سكناً وقراراً » .

ووصف الطاووس وهو يتحدث عن الطير . فقال:

« ومن أعجبها خلقا الطاووس الذى أقامه الله فى أحكم تعديل ، ونضد أصنافه فى أحسن تنضيد ، بجناح أشرج قصبه ، وذنب أطال مسحبه وإذا درج إلى الأنثى

نشره من طيه وسما به مطلا على رأسه . إلى أن يقول : يفضى كإفضاء الديكة ، أو يؤر بملاقحه أر الفحول المغتلمة فى الضراب . فإن شبهته بما أنبتت الأرض قلت « جنى جنى من زهره كل ربيع ، وأن ضاهيته بالملابس فهو كوشى الحلل ، أو مونق عصب اليمن ، وأن شاكلته بالحلى فهو كفصوص ذات ألوان قدنطقت باللجين المكلل ... »

وهكذا تجد فى أدب على الدين والسياسة والأدب ، والحكمة والوصف العجب ، والبيان الزاخر .

هذا كتاب إلى شريح القاضى يعظه ، وقد اشترى داراً ويحذره أن تكون من مال المسلمين ، فى معان عجيبة وأسلوب خلاب .

وهذا إلى معاوية يجادله فى الأحق بالخلافة ، وقتله عثمان فى معان لا يحسنها سواه ، وتلك كتب إلى العاملين على الصدقات ، يعلمهم فيها واجباتهم فى جميع ملابساتهم .

وذلك عهده إلى محمد بن أبى بكر حين قلده مصر ، وتلك وصيته إلى الحسن عند منصرفه من صفين ، لم يدع فيها معنى تتطلبه الحياة لمثله إلا وجهه فيه أسمى توجيه ، فى فلسفة خصيبة ، وحكم رائعة مفيدة ، وكل تلك النواحى والأغراض فى معان سامية مبسطة ، يعلو بها العلم الربانى الغزير ، والروح السامية الرفيعة وتدنو بها تلك القوة الجبارة على امتلاك أزمة القول ، كأنما نثر كنانته بين يديه فوضع لكل معنى لفظه فى أدق استعمال .

ولعلك لم تنس ما قدمت لك من وصف الخفاش وتفصيل أجزاء الطاووس ، فاسمع هذه أيضا ، ولم أتعمد فى نقلها إليك اختيارا ولا تعمقاً ، قام إليه رجل من أصحابه فقال : نهيتنا عن الحكمة ؟ ثم أمرتنا بها فما ندرى أى الأمرين أرشد؟ فصفق إحدى يديه على الأخرى ثم قال : « هذا جزاء من ترك العقدة ، أما

والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به ، حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيرا ، فإن استقمتم هديتكم وإن اعوججتم قومتكم ، وإن أبيتم تداركتكم لكانت الوثقى . ولكن بمن وإلى من ؛ أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها . اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى ، وكلت النزعة بأشطان الركى . أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرءوا القرآن فأحكموه ، وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها ، وسلبوا السيوف أغمادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفا ، وصفا صفا بعضه هلك وبعضه نجا لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون عن الموتى ، مره العيون من البكاء ، خمص البطون من الصيام ، ذبل الشفاه من الدعاء ، صفر الألوان من السهر ، على وجوههم غبرة الخاشعين ، أولئك أصحابى الذاهبون . » فانظر إلى قوة الحجة والالجاء إلى المحجة ، وغرابة التشبيهات وروعة الاستعارات ، وسطوع التصوير وانسجام المعانى وتآخذها .

ولقد يضيق بى القول فأقف حائراً عاجزاً عن شرح ما يجول بنفسى من تقدير تلك المعانى السامية ، فيسعدنى تصوير الأستاذ الإمام له وهو يقدم نهج البلاغة حين يقول :

فكان يخيل إلى فى كل مقام أن حروباً شبت ، وغارات شنت وإن للبلاغة دولة ، وللفصاحة صولة ، وأن للأوهام عرامة ، وللريب دعارة ، وأن جحافل الخطابة وكتائب الذرابة فى عقود النظام ، وصفوف الانتظام ، تنافح بالصفيح الأبلج . والقويم الأملج ، وتمتلك المهج برواضع الحجج ، فتفل من دعارة الوساوس وتصيب مقاتل الخوانس ، فما أنا إلا والحق منتصر والباطل منكسر ، ومرج الشك فى خمود ، وهرج الريب فى ركود ، وإن مدبر تلك الدولة ، وباسل تلك الصولة ، هو أمير المؤمنين الغالب على بن أبى طالب ...

أما الأسلوب فيتجلى لك ما يأتى :

(١) الثروة من الألفاظ العربية فى مفردها وجمعها ، ومذكرها ومؤنثها وحقيقتها ومجازها .

(٢) المجازات والكنايات فى معرض أنيق وقالب بديع .

(٣) الإيجاز الدقيق مع الاطناب فى مقامه ، ويظهر ذلك فى فقره وسجعاته الفريدة، التى يجمل بكل أديب أن يحفظ الكثير منها ليكون بيانه التكوين العربى السليم .

(٤) المحسنات البديعية فى نمط ممتاز من جناس إلى طباق وترصيع وإلى قلب وعكس ، تزدان بجمالها البلاغة ، ويكمل بها حسن الموقع .

(٥) الجرس والموسيقى وجمال الإيقاع مما يدركه أهل الذوق الفنى .

ويحسن قبل الختام أن أشير إلى ما نوه بهصاحب الطراز الإمام يحى اليمنى ، فقد تكرر ذلك فى عدة مناسبات ، وأولها تمثيله للبلاغة فى أول كتابه قال وهو فى ذلك الصدد : فمن معنى كلامه ارتوى كل مصقع خطيب ، وعلى منواله نسج كل واعظ بليغ ، إذ كان عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ، ومحط البلاغة ومولدها ، وهيدب مزنها الساكب ومتفجر ودقها الهاطل . وعن هذا قال أمير المؤمنين فى بعض كلامه . « ونحن أمراء الكلام وفينا تشبثت عروقه ، وعلينا تهدلت أغصانه » ثم أورد مثالا من أول خطبة فى نهج البلاغة وقال : العجب من علماء البيان والجماهير من حذاق المعانى ، كيف أعرضوا عن كلامه مع علمهم بأنه الغاية التى لا مرتبة فوقها ، ومنتهى كل مطلب ، وغاية كل مقصد فى جميع ما يطلبونه من المجازات والتمثيل والكناية، وقد أثر عن فارس البلاغة وأمير البيان الجاحظ أنه قال . ما قرع سمعى كلام بعد كلام الله وكلام رسوله إلا عارضته إلا كلمات لأمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فما قدرت على معارضته وهى مثل قوله : « ما هلك امرؤ عرف قدره » ، « استغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره » .

من الذكريات الإسلامية :

فى الهجـــرة المحمدية

قام النبي ﷺ يدعو قومه فى ثلاثة عشرة سنة فلا تلقى دعوته فى الكثرة الكاثرة منهم إلا إعراضا وصدوداً ، ولا يلقى من آمن به من الناس إلا اضطهادا .

وهو إنما يدعوهم إلى مجادتهم وعزهم كما يقول الله سبحانه (وإنه لذكر لك ولقومك) يدعوهم إلى الاعتقاد السليم والعقل الحكيم . بعد أن حرفوا فى العقائد. وتنكبوا إلى كل معوج حائد ، يدعوهم إلى ما يحفظ النفوس ويغرس المحبة بين أفراد المجتمع ، ولكنه كان يعرض الذهب على المتوحشين لا يبصرون منه إلا بريقه وأرجف به المضللون منهم وتواصوا بالشر له ولمن ، تبعه فى صور تقطع الأكباد وكانت هجيراهم ، فهم فيها دائبون وعليها عاكفون . ومن ظهور دعوة الحق مشفقون — يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .

كل ذلك ومحمد ﷺ مؤمن بدعوته ، متحف فى التبشير برسالته ، يخفق فلا يعتريه يأس، ولا يتطرق إلى ساحته شيء من الملل . وذلك درس للمؤمن أنه لا ييأس من روح الله ، وأن يترقب فرجه مهما أبطأ به ما ارتجاه ، ذلك هو صبر الأنبياء والمرسلين (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم كذبوا جاءهم نصرنا ، هذا هو أسمى معانى الانسانية أظهره الله فى نبيه بأقوى وأعلى مما كان فى المرسلين قبله . ثلاث عشرة سنة زمن طويل مظلم ويزيدها طولا وظلمة تتابع تلك الكوارث وتلاحقها ولكن هل نسى الله عبده . وهل زوى عنه رحمته ؟ كلا . وإنما هو تمحيص عبده وإخلاصه من الرعونات كما يخلص الماء من القذى وكما

يخلص المعدن النفيس القيم من الزبد الفاسد، (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض).

ذلك العلم النافع يرفع به الله الذين آمنوا فيوجههم كيف ينشأ المؤمن غير ضعيف ولا وكل كيف يعتز بربه ويلجأ إلى المستعاذ الحق من كنفه إذا ألم خطب أو نازل كرب.

لقد أنكر النبي ﷺ كل شيء في هذا الوجود حتى أهله وعشيرته الأقربين فلما خلا إلى ربه وتكشف عنه بالتمحيص والبلاء غين قلبه. إذا به يسمع الصوت من فمه. يترجم عن هذا الاخلاص العميق النقي من قلبه.

أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهو اني على الناس. إن لم تكن ساخطا فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي — هكذا المصائب في النفوس الكريمة هكذا المحن في النفوس العظيمة ولأمر ما يقول صلوات الله عليه في حديث أخرجه البخاري وغيره (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه وان كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)، فليس البلاء هوانا من الله لعبده كما يتوهم الجاهلون، وإنما هو تكفير للخطيئات ورفع الدرجات.

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فقياس الرضوان من الله سبحانه أن تكون موفقا للاخلاص في تنفيذ أوامره مضحيا فيما كلف من أعباء شعائره

ثم أمر الله سبحانه بالهجرة من أرض يئس فيها من إجابة الدعوة إلى حيث الإيمان والمنعة والعزة في قوم يصفهم الله سبحانه (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة).

وهو درس آخر على أنه لا ينبغى أن يقيم العزيز بأرض لاتعزه وأنه لاينبغى للمؤمن أن يكون غير عزيز فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون .

(إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا وهكذا الذليل يخسر دنياه وآخرته .

يخسر دنياه لأنه فقد عزة الإيمان . وكرامة الإنسان وأصبح نهبا مقسما كالحيوان . ويخسر آخرته لأنه بغيض إلى الله . فانه لايحب إلا العزة ولا يرضى عن الجبان الخائف (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا)، وانظر كيف بدل الله المؤمنين أهلا خيرا من الأهل ، ويجدا مؤئلا فى تلك الحرية التى مكنت لهم من التغريد بألحان الحق ، والتمجيد المطمئن لبارى الخلق .

وهكذا شاء الله أن يعلم المؤمن أن الأرض كلها لله . وهكذا أراد أن يظهر موضع محمد وأصحابه فى الأمن مطمئنين ربانيين فياضين، كما ظهر موضعهم فى الخوف، وهكذا تكون مسالك المؤمنين .

شهر الصيام

لبيك شهرا ساد الشهور ، وخلد قدره على الدهور ، أياما معدودات ولكنها آلاف مؤلفات ، طابت ذكراك ، فارتقب الصديقون مسراك ، عيد إسلامى ، ولكنك عند الحق عيد إنسانى ، ذلك (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) ، أى شهر رمضان ، ياشهر القدسية والإيمان ويامرشد كل حيران تعود بالنفس إلى محلها الأرفع ، وتلحقها بمثلها الأعلى ، حيث تسبح مع الأملاك المكرمين الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

ولابد للنفس يارمضان من تودد إلى عالمها الأول لتذكر عهدها وتصحو من شواغلها فتحن إلى أدائها وتقوم من أودها وتخجل من حياتها وغدرها ونقضها عهد ربها (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا شهدنا)، وقد شرفك الله يارمضان ، بأن تكون ميقات الذكرى وموعد حساب الضمير ليجدد الانسان عهده ويغسل فسقه عن أمر ربه (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) .

لبيك شهرا ضل فيه الشيطان وسدت لجاجه عن الانسان وضاقت مجاريه فلا يخلص إليه لا يتسرب الظلام إلى صائمك ولا الظلم إلى راعى جانبك فالظلام . حيث أبخرة الطعام . والظلم حيث يغلو الوحشية فى الطعام ، ولكنك تغرس السكينة وتفرس الضغينة ، وتسوى بين الناس كيوم الحشر ، وتؤلف القلوب على البر والخير .

ياشهر الصيام :

لقد بهرت فلا تخفى على أحد   إلا على أكمه لا يعرف القمرا

أمن فضلك كل ذى فضل وتقدير . وعرفك كل ذى عقل وتفكير . لقد كتب الله الصوم على جميع الأمم لعلهم يتقون فكان ما أراد الله منه تهذيب وتدريب ، وسكينة ووقار ، وسمو فى انكسار ، وكبح لجماح الهوى ، وعلو فى المدرك ، ونبل فى المسالك (والصوم جنة فلا يرفث ولا يفسق ، وإن امرؤ سابه فليقل إنى صائم، والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عندالله من ريح المسك) ، الله أكبر . لعمر الله لقد ربحت التجارة وأنجحت الطلبة الله أكبر . إن الله سبحانه رضى منك . أيها الصائم أن زكيت نفسك وطيبت قلبك وإن أجمت نفسك وأهملت ظاهرك ، وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب .

الله أكبر : لقد أفلح الصائم فصار فى كنف الله وحظيرة رضاه وإن انتن فمه وتغير جسمه .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

لقد غفر الله لك خلوف الفم بل جمله إذ كان فى اتجاه التقوى من أجل النعم .

ياشهر الصيام لقد آمن بفضلك كل ذى فضل وتقدير وعرف لك قدرك كل ذى عقل وتفكير .

وعرفك النساك فكنت رائدهم إلى طريق النسك والزهادة . والتغلغل فى القنوت والعبادة، يجدون نفس الرحمن من قبل رمضان . فيتأنقون فى مسارب الإحسان، فليلهم قائمون ونهارهم صائم لهم فيك ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، ولك منهم نفوس تطير شوقا إلى ربها . وتكاد تخرج من الدنيا حنينا إلى بدئها :

تولى نهار الناس حتى إذا دجا لى الليل هزتنى إليك المضاجع

ياشهر رمضان . أنت شهر الصوم الذى هو نصف الصبر والصبر نصف الإيمان لأن الإيمان لايقوى إلا فى نفس مروضة تصمد للرؤية والحسنة وترضى فى الرخاء

والشدة لا بأس على مافاتها ولا تفرح بما آتاها . لا يصدها عن الحق زخرف وتبرج ولا جبار مزعج، تشري نفسها ابتغاء مرضاة الله . ولا تؤثر على الخير معنى سواه أولئك الذين هدى الله . إن الله مع الصابرين . لهذا يسر الله سبحانه قبلك الخير لطالبه وصرف الشر عن المتورط به (إذا كان رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وصفدت الشياطين ونادى مناد ياباغى الخير هلم وياباغى الشر أحجم). وكل ذلك قرين الصبر (أنت من نفحات الله التى تلتمس ومن الكفارات التى تنشد) .

وعرفك العالم فدحض بك عقله ونقى ذهنه . وقوى بحثه . وإذا كانت البطنة تذهب الفطنة . فان الجوع مناط السطوع فما أبعد الخير والرشاد . وعمن يهيمون الطعام والشراب فى كل واد . وإذا قل طعم العبد امتلأ جوفه نورا . وهل العلم إلا نور يقذفه الله فى قلب عبده . لقد طالما استعصت على الباحث مشاكل تعرض فلا يحلها إلا على نبراس ضيائك وفى ظل صفائك .

ياسبيل التقوى . يارائد المراقبة والمحاسبة فى السر والنجوى (كل عمل بن آدم له إلا الصوم فانه لى وانا أجزى به ، يدع شرابه وشهواته من أجلى) .

وعرفك الفقير فرضى واطمأن وهدأ وسكن وقدر ماهو فيه من الحرمان وأعرض عن التطلع إلى كل عرض فان . ونال الحكمة وأيقن بالجنة لأنه لمس مافى الحرمان من عصمة .

وعرفك الغنى فزهد فى حطامه . وخلص من كثير من آثامه، وتودد الى الفقير لما انجلى صدأه وانكشف غطاؤه، فاستبدل بالقسوة لينا . وبالشدة رحمة وبالبخل جودا وسخاء، لقد نزل عن مستواه وعرف جانب الله .

انتهى الكتاب بحمد الله وعونه

الفهرس

